بغداد

كما وصفها السوّاح الأجانب

في القرون الخمسة الأخيرة

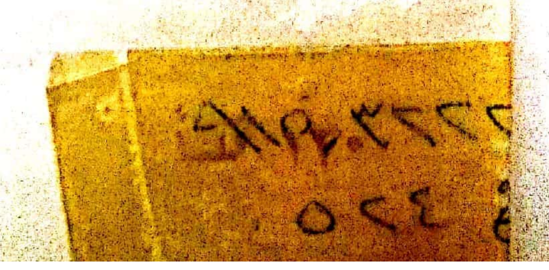
ترجمه وجمعه عن الألمانية

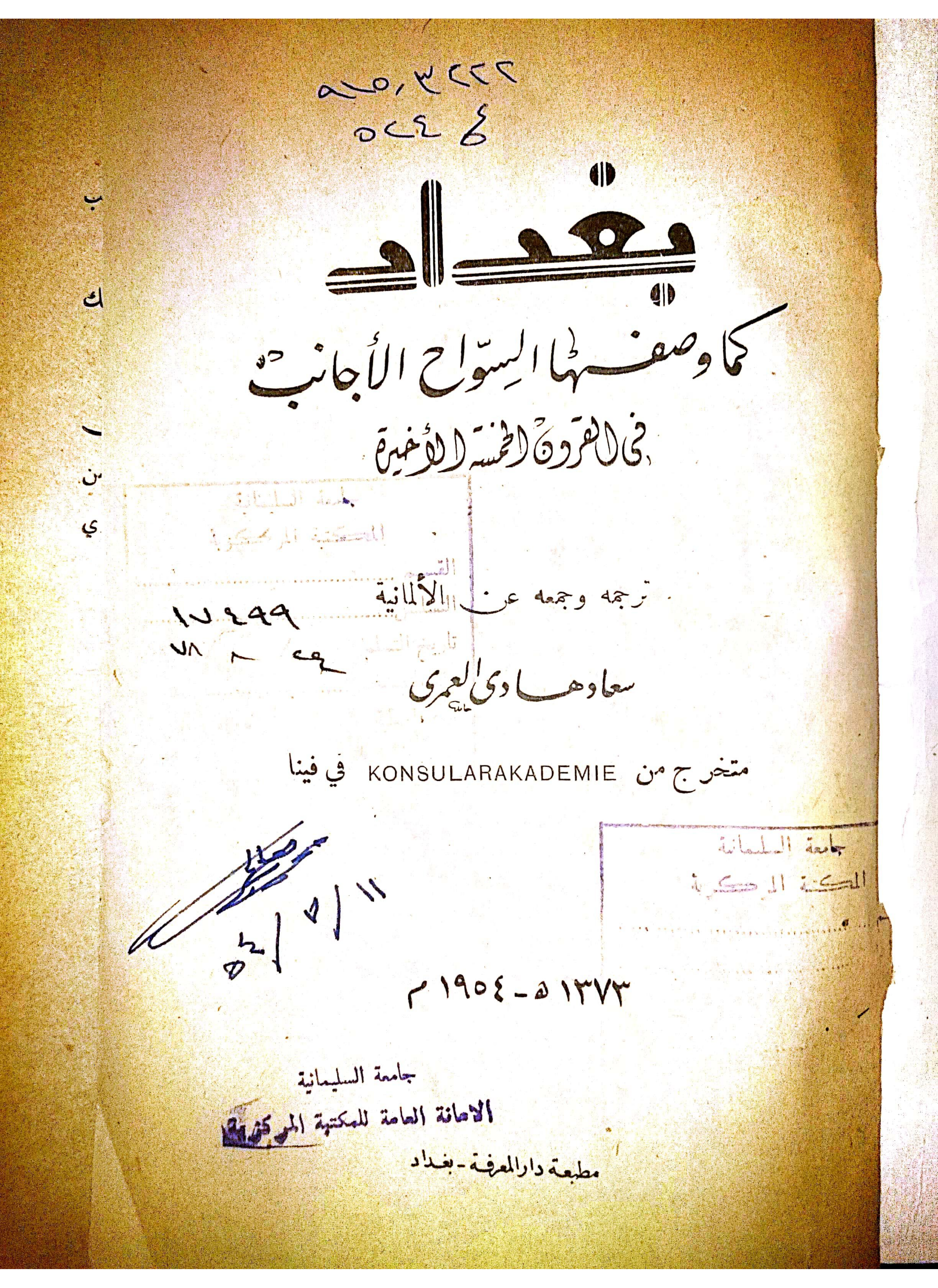
سعاد هادي العمري

خريج KONSULARAKADEMIE في فينا

١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

مطبعة دار المعرفة - بغداد





بغداد

كما وصفها السواح الأجانب

في القرون الخمسة الأخيرة

ترجمه وجمعه عن الألمانية

سعاد هادي العمري

متخرج من KONSULARAKADEMIE في فينا

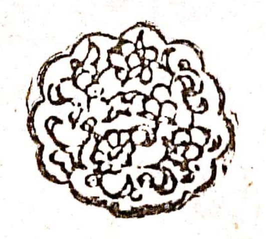
١٣٧٣ هـ - ١٩٥٤ م

مطبعة دار المعرفة - بغداد

تجارتها وتعيش برغد ورفاه تعقب ذلك آفة سرعان ما تدهورها وتسبب نقصان السكان .

واذا افاد كتابنا القاريء المحترم ببعض المعلومات عن حالة بغداد في تلك الأدوار فأن جهودنا في تقديم هذا الكتاب لم تضع عبثاً .

ولا بد لي قبل ان أختتم هذه المقدمة ان اتوجه بالشكر الى كل من الاستاذ الفاضل يعقوب سركيس الذي تفضل وفتح لي مكتبته ومكنني من الاطلاع على مافيها من مصادر نادرة عن تاريخ العراق وللاخ الاستاذ خيري العمري الذي ساهم في تنسيق فصول الكتاب وتبويبه .



المدخل

بدأت بغداد التي أزال (هولاكو خان) مقام الخلافة منها ، فدمرها واحالها الى رماد ، تتألق من جديد اثنـــاء امارة الخروف الأبيض (الايلخانيين) . ولكن بعدما يقارب المئتي عام في سنة ١٤٠١ ، لما قضى تيمورلنك الذي أرهب العالم على هذه الامارة ، اصاب بغداد ايضاً نفس البلاء الذي اصاب حلب والشام اثناء سقوطها ، فحكم السيف في بغـــداد مدة طويلة .

وبالرغم من الدفاع المستميت الذي ابداه البطل (فروج) والي السلطان (احمد جلائر) من الايلخانيين ، فقد هوجمت المدينة في يوم من اشد ايام تموز حراً وفي اشد وقت ترتفع فيه الحرارة ظهراً ، (هامهر - تاريخ الدولة العثمانية - النسخة الالمانية - القسم الأول صحيفة ٣٠٤) بحيث ان المدافعين عن المدينة تركوا خوذهم ورماحهم بسبب شـــدة الحرارة وعلقوها على الجدران . وعلى ما يقول المؤرخ ان بغداد مدينة السلام انقلبت الى مدينة الجحيم ، فقد اضرم الاعداء النار في كافة الأبنية ودمروها عـــدا الجوامع والمدارس والأديرة والمستشفيات وقضوا على الاهالي كافتهم دون تفريق بين الصبيان الذين يتجاوز عمرهم (٨) سنوات والشيوخ الذين تزيد اعمارهم على الثمانين ، عدا الأئمة والقضاة ورجال الدين فقد كان على كل جندي في جيش تيمور لنك البالغ عدده (٩٠٠٠٠) مقاتل ان يقدم اسيده رأساً من رؤس البغدادين اذا اراد ان ينجو برأسه ، وقد صنعت من هـــذه الجماجم ابراجاً امام ابواب المدينة اشارة للظفر .

مقدمة المترجم

ان الكتب التي ألفت مستندة الى مصادر اجنبية عن حياة بغداد في القرون الخمسة الأخيرة قليلة جداً . ولكي نسد قسماً من ذلك الفراغ ، ترجمنا عن اللغة الألمانية ، الفصول التي رأيناها مفيدة ، من كتاب الجغرافيا القديمة لـ (ريتر) ومن مذكرات السواح الذين زاروا بغداد في تلك الآونة . وعسى ان نكون قد قدمنا بترجمة هذا الكتاب فائدة الى القراء الكرام .

وحيث ان هذا الكتاب عبارة عن ترجمة صرفة لانطباعات السواح الأجانب ، فقد يكون في تلك الانطباعات والآراء ما يجانب الصواب ونحن كمترجمين لا نملك ان نصححها أو نعلق عليها .

والكتاب الذي بين أيديكم يتألف من قسمين :

القسم الأول : ترجم عن كتاب الجغرافي الالماني (كارل ريتر) المطبوع في سنة ١٨٤٤ في برلين .

ولد *Karl Ritter* في سنة ١٧٧٩ وتولى منصب استاذ الجغرافية في جامعة برلين وقد كان مع صديقه (همبولت) أول من وضعا أسس الجغرافية الحديثة وفيها كان يقارن بين الموقع الطبيعي وحياة وتاريخ سكان المنطقة . وألف هذا الجغرافي الكبير كتابه (جغرافية العالم) الذي لم يتمكن من اتمامه لوفاته حيث بدأ بقارة أفريقيا واعقبها بقارة آسيا التي اقتضته عشرة مجلدات وكتبه خلال سبعة وعشرين عاماً من سنة ١٨٣٢ الى سنة ١٨٥٩ .

توفى (ريتتر) في سنة ١٨٥٩ في برلين وكان زميله الشاعر الألماني الكبير « كوته » يقدره دائماً .

ولعل أهم ميزة في ذلك الكتاب الذي نترجم قسماً منه ، انه يبحث بالاضافة الى المعلومات الجغرافية عن قسم كبير من المعلومات التاريخية والحياة الاجتماعية . وقد استقى (ريتتر) كل تلك المعلومات من كتب السواح الأوربيين الذين زاروا بغداد آنذاك وذكر لنا في نفس الوقت هذه المصادر التي نقلها حرفياً لتكون مرجعاً لمن يهتم بدراسة هذه الفترة من تاريخ بغداد.

ويبحث هذا القسم من الكتاب عن مشاهدات السواح الأجانب الذين زاروا بغداد في الدور الذي يبدأ بسقوط المدينة بيد الأتراك على زمن سليمان الأول وينتهي بوصف الطاعون وسقوط داود باشا .

القسم الثاني : ترجمنا في هذا القسم عن السائح الألماني الشهير (بترمان) من كتابه المطبوع في ليبزيغ في سنة ١٨٦٤ .

ولد (*H. Petermann*) في سنة ١٨٠١ وزار بغداد أثناء ولاية (كوزلكلي رشيد باشا) في سنة ١٨٥٤ ومكث فيها خمسة أشهر .

وقد كان يتكلم العربية بالاضافة الى اللغات الأجنبية المتعددة وهو دقيق الملاحظة في مشاهداته وقد دون تلك المشاهدات والروايات التي وصلت الى سمعه باسلوب شيق جداً وله أيضاً باللغة الألمانية كتاب في صرف اللغة العربية ونحوها .

ونلاحظ ان عدد نفوس بغداد في تلك الأدوار قد تغير بصورة مستمرة بسبب الأمراض والفيضانات والحروب وكلما تبدأ المدينة بالازدهار في

الثمان) التي كان آخرها بغداد مدينة (دار السلام) أو (دار الظفر) .

ولما امضى الجيش الشتاء في بغداد لم يبق زعمائه عاطلين اذ فحصوا الاراضي الموجودة هناك بمعاونة الوزير الاعظم ، ووزعوها وعينوا الجزية وربطوا هذه الاراضي بموجب نظام اراضي الدولة العثمانية ، وقد زاروا المقابر والمدن المقدسة وقاموا بكل هذه المراسيم حسب المذهب السني ، ووجدوا بمعاونة السلطان سليمان القبر الحقيقي للأمام الاعظم الذي كان منسياً من مدة طويلة وقد بنوا هناك جامعاً جديداً صار منذ ذلك الحين من اهم المقامات للزيارة عند المسلمين . . .

لما تربع مراد الرابع على العرش في استانبول في ١٠ ايلول ١٦٢٣(١) طلب كل فردٍ من الانكشارية خمسة وعشرين قطعة ذهبية كهدية لجلوسه وذلك لأدعائهم بانهم هم ألذين خلعوا السلطان السابق من العرش ونصبوه مكانه . ووصلت هذه الأضطرابات الى بغداد حيث كانت قلقة من جراء الحروب الايرانية .

وكان القائدان الثائران الذان يحمل كل منهما اسم (بكر) يحارب بعضهما بعضاً فاحدهما كان والياً على بغداد ، اما الثاني فقد اغتصب هذا المقام بقوة السلاح ، فأرسل الباب العالي سليمان باشا كقائد ليحافظ على بغداد لأنها قلعة الدولة ضد ايران . وكان على سليمان باشا ان يحاصر المدينة اولا لأن (بكر) شخصية قوية النفوذ ولأنه استنجد بمعونة شاه ايران ، ورغم خيانته للسلطان فقد عين العثمانيون بكرا والياً لبغداد لكي لا يسلم المدينة للايرانيين .

---

(١) هامر – تاريخ الدولة العثمانية – بالالمانية – القسم الخامس صحيفة ٤ و ١٣ و ٥٤ و ٦٦

وفي هذه المرة حاصر الايرانيون المدينة نخان ابن بكر وسلم اباه والمدينة الى الايرانيين ، فسقطت المدينة بهذا الشكل في تشرين الثاني من هـــذه السنة ونتيجة لذلك فقد أبيد السنة الموجودين في بغـــداد بأجمعهم وازيلوا من الوجود .

والايرانيون الذين وسعوا فتوحاتهم الى ديار بكر لم يتمكنوا من الاستقرار مدة طويلة في بغداد ، تلك المدينة التي تذهب منها الجماعات الموالية للامام علي متوجهة الى كربلاء بقصد الزيارة .

وفي سنة ١٦٢٦ نمى الى والي الاتراك في ديار بكر ان قسماً كبيراً من الجيش الايراني قد ذهب لزيارة مرقد الامام علي (رض) الواقع على الفرات وهو اكبر مراقد الزيارة عند الشيعة ، فاستفاد الوالي من ذلك فقدم الى بغداد وقطع طريق الزوار الراجعين من زياراتهم ولكنه اضطر الى الانسحاب بشكل مخز . وقد نتج من ذلك سفر مراد الرابع الى بغداد حيث فتحها الاتراك في سنة ١٦٣٨ مرة ثانية بشكل مهيب .

وكان حصار المدينة هذه المرة من كل اطرافها ، لأن الدفاع عنها كان قوياً . وحسب ما يكتب المؤرخ التركي (نوري) ان السلطان وصل بغداد من (اسكدار) الكائنة مقابل استانبول في (١٩٧) يوماً عن طريق حلب ، ديار بكر وكركوك براً وقد اخذ (٨٦) يوماً منها للراحة .

كانت المدينة محصنة براً ونهراً بالسور والأبراج ويذكر (هامر) ان فيها (٩٧) برجاً على دجلة وعلى البر (١١٤) برجا فيكون مجموعها (٢١١) برجاً ، ويقدر محيط المدينة بما يقارب (١٠٠٠٠) خطوة معتدلة (في وقت تيمـــور ستة آلاف خطوة مضاعفة) وبين البرجين خمسون نقباً

ويذكر المؤرخون ان دجلة اصبح يسيل بالدماء ومع ذلك فأن تيمور لنك هادم بغداد زار مرقد الامام ابا حنيفة قبل ان يترك بغداد .

وبعد مضي (١٣٢) سنة انتقلت بغداد التي كانت طيلة هذه المدة تحت حكم السلالات الايرانية ثم الصفويين أخـــيراً الى يد الاتراك لأول مرة ، ولكن هذه المدينة التي فتحت في سنة (١٥٣٤) من قبل السلطان سليمان لم تبق على الدوام مدينة تركية بالنظر لأنها عادت في سنة (١٦٣٣) الى يد الايرانيين ، وبعد (١٠٤) اعوام أي في سنة (١٦٣٨) استولى عليها مراد الرابع بصورة نهائية .

ومما يلفت النظر انه في الوقت الذي كان العثمانيون يؤسسون دولتهم في آسيا وأوروبا كانت نتائج الحروب في الحدود الشرقية والغربية يؤثر بعضها على بعض ، فالحروب التي نشبت في الدانوب مع الاقوام الجرمنية كان لها تأثير على مستقبل الأقوام الساكنة في جنوب الفرات ونشاهد نفس التأثير في عهد (دارا) و (كيخسرو) اثناء حروبهم مع القبائل اليونانية ، على القبائل الساكنة في (اندوس)

ويتمثل ذلك فى تقدم السلطان سليمان ضد الايرانيين فى سنة (١٥٣٣) بعد الحرب التي دخلها ضد المانيا ، حيث كانت في هذه الآونة تحت حكم القيصر (فرديناند) كما فعل والده سليم الأول ومحمد الثاني وحسب مايكتب (هامر) الذي أرخ تاريخ الدولة العثمانية بشكل موثوق منه ، ان الحروب والمسالمات بدأت مع الايرانيين والألمان تتعاقب . والحرب مع احد الجانبين كانت تؤدي اما الى شن الحرب على الطرف الثاني أو تقصر من مدة الحرب الأولى وتكون تركية موضوعة بين ايران والمانيا ، جيرانها في الشرق والغرب ،

كمدو من الناحية السياسية ، ويقوى من هذه المداوة السياسية العداء القومي والاختلاف المذهبي . وعلى ما يقول (هامر) ان اجداد الالمان والايرانيين الذين ينتسبون الى عرق واحد وكانوا يسكنون في ايران تحاربوا باستمرار مع اجداد الاتراك المستوطنين في (توران) .

بغداد ، بعد احتلال العثمانيين لها

اسوارها ، ابراجها وابوابها

وفي أثناء حكم شاه ايران (طهماسب) انفصلت بنتيجة الخيانة والتفسخ الداخلي ولايات بتليس ، وان ، طوروس وبغداد عن حكم الايرانيين والتجأت الى حماية العثمانيين ولكن العثمانيين لم يتمكنوا من الوصول بقواتهم المسلحة الى بتليس وطوروس والى (همدان) عاصمة (طهماسب) الا في سنة ١٥٣٣ و١٥٣٤ ، ومن هذه المدينة الاخيرة تحرك الجيش التركي تحت قيادة السلطان سليمان وبعد ان عبر نهر *Orontes* وصل الى ابواب بغداد ووجد وزير اعظم السلطان مدينة بغداد بدون مقاومة فأرسل مفاتيح المدينة الى السلطان ودخل السلطان بعد مدة وجيزة الى المدينة فاتخذها مقراً شتوياً ومكث فيها اربعة اشهر فاصبحت بغداد التي كانت تسمى بـ (دار الخلافة) تسمى بـ (دار السلام) (١) وصارت قلعة الحدود في المشرق الدولة العثمانية ضد الايرانيين وكانت مدينة (بلغراد) التي سميت باسم (دار الجهاد) تقوم بنفس الوظيفة كقلعة الحدود الغربية ضد الالمان ومن هذا الوقت اكتسب السلطان لقب (خاقان البرين والبحرين وحاكم المقرات

---

(١) *Hammer - Purgstall Geschichte des osmanischen Reiches*
تاريخ الدولة العثمانية ، القسم الثالث صحيفة ١٥٠-١٥٥

(مزغال) (١) ، بين كل ثقب وآخر خطوة واحدة .

ومقابل المدينة الجديدة الواقعة على الساحل الشرقي لدجلة توجد في الساحل الغربي المحلة الأمامية تسمى (قوشلر قلعه‌سي) ـ قلعة الطيور ـ وشمالها مرقد الامام (موسى الكاظم) ذلك الامام الذي عرف بكظمه للغيظ وهو من أحد الاثني عشر اماماً وقد استشهد بالسيف ودفن الى جنبه حفيده الامام التاسع محمد تقي .

ومنذ ان نهب الوهابيون في سنة ١٨٠١ محلات الزيارة للشيعة الواقعة على الفرات ، سكن كثير من المتدينين الفرس الكاظمية حيث توافد عليها كثير من الزوار فاصبحت مدينة مقدسة فارتفعت قباب جوامعها المذهبة ولمعت بين النخيل المحيطة بالمدينة (٢) .

ومقابل هذه المقبرة على الجانب الشرقي من دجلة، عند القسم الشمالي من المدينة توجد مقبرة مشيدة منذ زمن السلطان سليمان ، تعود الى الامام الاعظم ويوجد في داخلها مرقد الامام أبو حنيفة . لهذا يطلق على الباب الأول الذي يفتح من هذه الجبهة اسم « باب المعظم » أو « باب ابي حنيفة » . والى قرب الزاوية الكائنة في الشمال الغربي تماماً يقع قصر الوالي بقلعته الطويلة ومقابل باب المعظم بالشمال يوجد في جنوب المدينة ، على الساحل الأيسر لدجلة أيضاً (باب الظلمة) أو (قرا كلق قاپو) .

---

(1) *Niebuhr - Grundritz der stadt Bagdad Vol II .*

2) *Ker Porter - Trav . Vol . II . P 281*

وقارن : *Southgate - Narrative of a Tour etc ... London 1840 vol II . P . 167*

و *Buckingham Trav . In Mesopotamia P . 402*

[حسب (هامر) أن (نيبور) مخطيء، حيث يسميه (قره اولوق)]

في استقامة الشرق على الطرف البري الثالث يفتح باب يسمى (الباب الابيض)

— آق قابو — وفي هذا القسم بعد مدة يذكر (نيبور) وجود بابين ،

أحدهما في الوسط ويسمى (الباب الوسطاني) الذى فتح بعد مدة ويكون

على مسافة ساعة من باب المعظم .

أما الثاني فيقع في برج الطلسم وهو مغلق بحائط فقد دخل منه مراد

الرابع منتصراً ولكي يبقى مقدساً ولا يضع احد قدمه على عتبته احتراماً له

اغلق لهذا السبب (١) .

وفي وسط المدينة على استقامة دجلة والجسر ، الذى يوصل بين الضفتين ،

يوجد — كما هو الآن — (باب الجسر) وقد ذكره نيبور بهذا الاسم ايضاً

وكان يؤمن الاتصال بين الطرفين . ان المدينة تعرضت اثناء المحاصرات السابقة

للهجمات الأصلية من زاوية الشمال الغربي باتجاه باب المعظم ، ومن القسم

الجنوبي باتجاه باب الظلمة .

وكانت الثغرات الموجودة في السور ترمم بمهارة ولكنهم اغفلوا العناية

بوسط السور المطل على البر من الناحية الشرقية المتجهة الى الباب الأبيض

وقد نقل اثناء هذه المحاصرة شخص فارسى الى الأتراك هذا النقص وكانت

خيام السلطان مراد مركزه في القسم الشرقى من دجلة على تل يقرب من

القلعة وباب المعظم ولم ير السلطان مراد من المناسب ان يزور مرقد الامام

الأعظم قبل ان ينال النصر النهائي . .

---

(1) *Niebuhr - Reisebeschreibung II . 294* صحيفة
Ker Porter Trav . II . P. 26 و

وقد بدأ الحصار في الليلة الأولى بحفر الخنادق وجلبت في اليوم الثاني مدافع ثقيلة على دجلة وفتحت النار من اطراف المدينة الثلاثة وفي اليوم الرابع تقدم جيش مؤلف من (١٢٠٠٠) شخص تحت قيادة باشا طرابلس عن طريق دجلة لهدم البساتين الكائنة في شهربان . وفي اليوم الثامن للحصار تهدم كثير من الابراج وقد بذل المدافعون عن المدينة جهدهم لسد الثغرات بسلال مصنوعة من سعف النخيل ومملوئة بالتراب وقد وزعت اكياس للجيش العثماني المحاصر يبلغ عددها حوالي (٢٦٠٠٠٠) كيساً لانشاء الاستحكامات وجلود الأغنام لحمل التراب وقد قطعوا الآلاف من سعف النخيل لغرض استعماله كجدران لمحاصرة المدينة وقد جلب امير عرب البادية عشرة آلاف حمل جمل كارزاق للمحاصرين .

فسلمت المدينة بغداد في ٢٣ كانون الأول ١٦٣٨ عقب الهجوم الأول ولكن ذلك لم ينقذ اهلها المساكين من اراقة الدماء ، ففر ثلاثون ألف فارس من باب الظلمة الكائن في جنوب المدينة ثم عين (كوجوك حسن) أول وال لبغداد وقفل مراد الرابع راجعاً بعد مدة وجيزة الى مقر خلافته على البسفور . . .

وفي فترة وجيزة اصبحت بغداد مركزاً كبيراً للترانسيت للتجارة الشرقية أي من ايران والهند وباعتبارها مركزاً للوالي المستقل صاحب النفوذ اتسعت واخذت تشبه العاصمة وحياة بلاطها وبالاضافة الى ذلك فأن الثروة الطبيعية كانت منتشرة في اطرافها . .

وعلى ما يقوله المؤرخ (هامر) (١) لم يبق اثر من آثار البلاطات

(١) هامر – تاريخ الدولة العثمانية ، النسخة الالمانية (القسم الثالث صحيفة ١٥١)

القديمة للخلفاء والمرصد المشهور ولم يبق من قبر زبيدة زوجة هارون الرشيد الا القبة ذات الثمانية زوايا وبرج المدرج ، اما مقر المدرسة النظامية التي شيدها نظام الملك فلم يعرف . ولكن المدرسة المبنية على هذا الطراز من قبل الخليفة المستنصر اتخذها الاتراك محلا لمبادلة البضائع بعد ان كانت مقراً للتبادل الفكري وعلى ما يصفها (نيبور) انها اصبحت مقراً للكمارك وغدت (كروان سراى) (١) كما كانت تشير الكتابة فوقها في وقت (نيبور). وبقيت المراقد المقدسة لا يجوز للمسيحيين دخولها .

وامام قبر الامام ابي حنيفة، ثاني الأئمة الاربعة واعظمها يوجد قبر الامام حنبل ، ويقع في القسم الغربي من دجلة وقد جرفته مياهه في عهد نيبور (٢) .

وفيما عدا ذلك توجد مقابر وقبر الامام ابو يوسف والامام محمد ومقابر كبار الصوفيين مثل شيخ جنيد وشبلي ومنصور الحلاج وقد ادعى الأخير ان الله قد حل في شخصه وقد قتل في حينه بعد تعذيب شديد ولكن بالرغم من ذلك فانه لم يقض على وجود اشخاص كانوا يعتقدون بمذهبه . عدا ذلك يزور الناس قبر الشيخ عبدالقادر الكيلاني مؤسس الطريقة القادرية الكائن في داخل المدينة واما قبر الشيخ السهروردي فيرتاده الناس ويحترمونه احتراماً كبيراً وبجانب مقبرة ابي حنيفة توجد آثار مقابر بعض الخلفاء من بني العباس . اما الكثير من الآثار القديمة الشهيرة فقد غابت حتى معالمها .

وقد ذكر العالم الجغرافي الحديث التركي (حاجي قلفه) في كتابه (جهانما) المطبوع سنة ١٧٣٢ صفحة ٤٥٨ ان محيط هذه المدينة الحديثة

---

(١) نيبور – الجلد الثاني ، صحيفة ٢٩٦ ، النسخة الالمانية

(٢) نيبور – الجلد الثاني – صحيفة ٣٠٥ – النسخة الالمانية .

يبلغ (١٢٤٠٠) أو (١٢٢٠٠) ذراع وقد بحث عن الجدران السميكة (الاسوار) المحاطة بالخنادق العميقةوحوالي ١٥٠ أو ١٦٣ برج أو استحكام بالشكل الآتي :

١— من النهر الى باب المعظم يوجـــد ١٢ برجاً ومسافتها تساوي ٧٠٠ ذراع .

٢— ومن هذه النقطة الى الباب الابيض ٣٤ برجاً ومسافتها تساوي ٢٨٥٠ ذراعا .

٣— ومن هذه النقطة الى الاستحكامات الايرانية ٢٦ برجاً ومسافتها تساوي ٢٠٥٠ ذراعا .

٤ — ومن هنا الى باب الظلمة ٣٦ برجاً ومسافتها تساوي ٢٨٥٠ ذراعا .

٥— ومن هذه النقطة الى دجلة توجـــد ٤ ابراج ومسافتها تساوي ٥٠ ذراعا .

٦— ومن هذه النقطة الى الجسر يوجد ٣٣ برجاً ومسافتها تساوي ٢٦٥٠ ذراعا .

٧— ومن هذه النقطة الى اعلى نقطة تقع على النهر يوجد ١٨ برجاً ومسافتها تساوي (١٠٥٠) ذراعاً .

والمجموع يبلغ (١٢٢٠٠) ذراع ومنه (١٦٣) برجاً .

اما (كر بورتر) (١) فقد نظم احصائه في سنة ١٨١٨ فلم يذكر سوى (١٣٠) برجا منهم .

---

(1) Ker Porter - trav. Vol II . P.266

بغداد كما وصفها C.FEDERIGO و RAUWOLFF

وقد زار بغداد (١) Caesar Federigo وهو احد تجار البندقية بعد مرور ثلاثين عاماً على فتحها من قبل السلطان سليمان أي سنة ١٥٦٣ وقد شاهد المدينة بعد (١١) عاماً أو في سنة ١٥٧٤ Rauwolff الذي كان عالماً وطبيباً ومنشأه من مدينة (آوغسبورغ).

عرف السائح الأول المدينة بأسم (بابل) فقد قدم اليها من الفلوجة التي اطلق عليها اسم قرية (فالوكيا) ويذكر ان هذه المدينة تقع على بعد نهار ونصف عن بغداد وقد ابدى استغرابه من صغر (بابل) فذكر انه رأى في المدينة كثيراً من التجار الاجانب في طريقهم الى ايران وعربستان وتركيا وقد التقى هناك بكثير من الأرمن (كما في وقت هەرودوت) الذين اعتادوا استعمال (الكلك) المسمى آنذاك Vitry كوسيلة للنقل على نهر دجلة الى الجنوب وبعد تفريغ حمولتهم في بغداد يعودون الى اوطانهم مع قربهم. ويذكر هذا السائح ان في المدينة جسراً مشيداً على العوامات ولكن بسبب ارتفاع المياه قسم هذا الجسر الى قسمين القسم الأول مربوط من جهة بابل والقسم الثاني من جهة الاسواق لذا يضطر المرء الى الاستعانة بالزوارق الصغيرة لعبور دجلة مما يسبب خسائر كبيرة في البضائع والارواح.

وحسب ما يروي هذا السائح البندقي الاصل ان في طرف دجلة محلا يدعى (Arabia) يبعد سبعة أو ثمانية اميال عن مدينة بابل (بغداد) وفيه برج نمرود أو بابل وهو مخرب من كل جهاته وعلى هذا الوصف يجب ان

(1) The voyages and travels of M. Caesar Fredricke - merchant of venice ets.. Vol 1 . 4 . P. 159

يكون هذا المكان (عكركوف) وتشكل خرائبه تلا كبيراً في الاطراف والقسم الوحيد الذي يرتفع بين هذه الخرائب مغطى بالأنقاض .

ويخبرنا (فده ريكو) ان مجاريه وجدرانه المصنوعة من الطابوق كانت متينة الى درجة تبعث على الاستغراب . وكان عليه لأجل ان يقطع محيطها ان يسير مسافة ميل واحد وبالرغم من ذلك فأنه لم يعثر على اي باب أو منفذ من جميع اطرافه وكان منظر هذا الأثر يختلف تمام الاختلاف عن الآثار الاخرى التي شاهدها لأن بقية الآثار كانت تلوح صغيرة عن بعد بينما كان هـــذا البرج يلوح كبيراً عن بعد وكلما يقترب منه المرء يصغر (ويرجع سبب ذلك لكون البرج منفرداً في هذه الساحة فلا يوجـــد شيء آخر يقايس به) .

وقد سافر هذا السائح البندقي من بغداد الى البصرة بالسفينة .

ويسمي (راوولف) (١) هذه المدينة *Bagadet* أو *Baldac* وقد نزل أولا عند تاجر هندي استقبله بحفاوة فسكن معه ولكن بعد مكوث خمسة ايام على الجانب الشرقي من نهر دجلة استضيف في بنـــاية تعود الى مقر الباشا التركي .

وحسب مايقول هذا الدكتور الالماني ان مدينة بغداد تقسم الى قسمين مثل مدينة (بال) على نهر (راين) وهي كائنة على سهل واسع واكبر من (بال) الا انها اقل بهجة منها وابنيتها ليست مشيدة بصورة جيدة .

وتظهر فيها الأزقة الضيقة والبيوت المتهدمة وكثير من الجوامع الخربة التي استحال لونها الى اسود قاتم نقشت على احجارها الكتابات العربيـــة

---

(1) L. Rauwolff - Beschreibung der Reiss. A.A.O. II. Kap. 8 .S.78-85

ومن الأماكن التي تستحق الرؤية مقر الباشا التركي والسوق والكلدانية (؟) ودكاكين التجـــار اما حماماتها فهي اكثر رداءة من حمامات الكبير وطرابلس والاسكندرية وجانب المدينة الواقع على الساحل الايمن مكشوف اما الجانب الكائن على الساحل الأيسر من دجلة فقد كان محصناً بالابراج العالية والاسوار التي تحمل الحروف الاولى لأسم المدينة مكتوبة بالحروف المذهبة ويبلغ حجمها بحجم القدم (المترجم - يجب ان يكون الطغرى). وجسر بغداد ليس واسعاً كالجسر الذي على (راين) قرب مدينـة (ستراسبورغ) لكن جريان نهر دجلة يظهر للنظر سريعاً مظلماً مخيفاً الى درجة انه حين ينظر الانسان فيه ينتابه الدوران تقريباً. ويسكن الوالي في قصر كائن في القسم الشرقي من المدينة وله جيش قوي لأن حدود الدولة الايرانية قريبة جداً من القسم الشرقي من المدينة. واقوى نفوذ الوالي في المنطقة المتجهة نحو بادية عربستان (بادية الشام). وحسب ما يدعي هذا الدكتور، وهو من مدينة (آوغسبورغ) ان شتاء بغـداد يشابه ربيع مملكته وقد رأى بنفسه فيها النرجس، السنبل والبنفسج تتفتح ازهارها في كانون الأول وكانت المزروعات حول المدينة قليلة الا انهم كانوا يستوردون الحبوب والأثمار والنبيـذ بكميات كبيرة من الشمال وفي الوقت نفسه من الجنوب ايضاً.

وقد رأى (راوولف) في الثاني من كانون الأول (٢٥) سفينة قادمة من الهند محملة بالتوابل وسائر البضائع الثمينة المشابهة لها. قدمت هذه البواخر إلى بغداد من البصرة، التي تقع في الجنوب على مسافة ستة ايام من بغداد وقد استغرقت رحلتهم هذه اربعين يوما.

وبسبب الصعوبات الكمركية التي ابداها امراء الفرس والعرب نحـــو التجارة بين المدن اضطر التجار ان يتصلوا فيما بينهم بواسطة الحمام الزاجل .

وحسب رواية (راوولف) فأن تجـــار التوابل قد بنوا مخازنهم ومستودعاتهم خارج البلدة في الخلاء على طرف طاق كسرى حيث خزنوا هنالك بضائعهم داخل الاكياس في الخيم ومنها ترسل بواسطة القوافل .

وعلى ما يدعيه الدكتور فانه من المفروض ان الخيم تحتوي على اسلحة الحرب اكثر من الأشياء الاخرى ولكن رائحة التوابل الزكية تنم عن وجود الخيم من بعيد .

وقد كانت تجارة الجوهرات والمرجان والزمرد والزعفران والقرمز والأقمشة الحريرية والاغطية (الشراشف) التركية والاثمار رائجة في هذه الفترة . اما تجارة التمور فمبذولة وتجمع في اكداس وتقوم بجانبها ايضاً تجـــارة التين واللوز وقد اعتبرت بغداد أهم سوق لأحسن الجياد ولهذه الاسباب كثر سير القوافل لتأمين الاتصال مع التجار في كافـــة الاقطار الشرقيـة .

بغداد في زمن (*DELLA VALLE*)

وشاهد (١) (*Pietro della Valle*) بغـداد في سنة ١٦١٦ و ١٦١٧ قُبيل سقوطها بيد الفرس . ولا يذكر هذا السائح ما يجلب انتباهنا غير انه أول من صحح بصورة اساسية الغلطة السائدة في هـذا الدور ، في التباس مدينة بغداد مع بابل القديمة ويذكر في نفس الوقت ان بغداد ليست مدينة

(1) *Della Valle - Reissbesch.* (*Ubers. Von Wiederhold Genf 1674* T. I. S. 193 - 195,209.

سلوقية أو طاق كسرى .

وقد كان السوق آنذاك مملوءاً بالأقمشة الحريرية بشكل لا نظير له وذلك لكثرة انتقال الايرانيين الى المدينة . وكان عدد الشيعة الموجودين منذ عهد الفرس كبيراً ولذا حسب ما يقول (Della Valle) ان الوالي كان يذهب على رأس السنة الى مقر عمله بتحفظ شـديد لأن لهيب المناقشات الدموية بين المذهبين كان يندلع من وقت لآخر . وكانت الحالة وجوار بابل القديمة في هذا الدور تحت سيطرة رئيس الاشقياء ، الايراني ، مما يجعل الوصول اليها مغامرة حربية خطيرة ولكن هذا الارستقراطي الايطالي رجع بسلام في هذه السفرة ويذكر في احد رسائله سنة ١٦١٦ في تشرين الأول بأنه فحص تلك الخرائب بصورة دقيقة ورسم الرسام الذي كان قد اخذه معه تلك الخرائب بعناية ولكن مع الأسف اذا استثنينا منظر برج بابل الموجود في (١) Th. Maurice ليست لدينا اي معلومات عن تلك الاخبار ولولا ضياعها لكانت وثائقاً ثمينة لهذا الدور لمعرفة آثار بابل فيها . وفي نفس الوقت سافر هذا الايطالي نحو الجنوب في دجلة بالسفينة وزار معبداً كان يسميه يهود هذه المنطقة Nabuchodonossors ويسميه الاسلام Ainan - Kesra ويذكر السائح بحق ان هذا المكان هو بلاط خسرو في طاق كسرى .

وبعد ان تحرك من هنا ذهب الى Goa في الهند ويخبرنا من هناك ان الايرانيين تحت قيادة الشاه عباس دخلوا بغداد سنة ١٦٢٤ (٢) .

(1) Th. Maurice - *Observations connected with astronomy and ancient history Etc ... London 1816*

(2) Della valle - T. IV. S. 147

وزار (١) (*Tavernier*) بغداد في سنة ١٦٥٢ ويذكر ان سكان المدينة (خمسة عشر الف) نسمة وهذا الدور اكثر الأدوار انحطاطاً .

بغداد كما وصفها (NIEBUHR) و (BEAUCHAMP)

ووصف بغداد الحديثة (٢) (نيبور) في سنة ١٧٦٤ أول مرة بشكل دقيق ورسم خريطتها ايضاً وثبت موضع المدينة بواسطة علم الفلك فتبين انها تقع على ٣٣° ٢٠َ في العرض الشمالي وهذه النتيجة تختلف عما توصل اليه (٣) (بوشان) في سنة ١٧٨١ عن مقياسه بنصف درجة فقط حيث سجل ٣٣° ١٩َ ٥٠ً العرض الشمالي و ٦٢° ٤َ ٣٠ً على الطول الشرقي ويعلل (٤) (*Zach*) ان سبب هذا الفارق يراجع الى اختلاف نقط المشاهدة وحسبما يروي (٥) (كربورتر) انه بنتيجة تدقيق (*Rich*) فهي على ٣٣° ١٩َ ٤٠ً من العرض الشمالي و ٤٤° ٤٤َ ٤٥ً من الطول الشرقي .

وقد اصبح الآن قسم من الآثار التي ذكر نيبور عنها معلومات محلية أكثر تهدماً في الأماكن المنفردة . ولا تزال الأزقة الى الآن ، كما كانت في زمن (نيبور) ضيقة وقذرة والدور مرتفعة متألقة من عدة طوابق واطرافها محاطة بالجدران وقد غرست في وسطها بعض النخيل وتؤثر اشعة الشمس النازلة عمودياً على هذا (الحوش) في مضاعفة الحرارة فيحتاج المرء هناك الى الغرف الصيفية الباردة والمبنية تحت الأرض وتسمى (سرداب) وتكون

1- *J. B. Tavernier - Les Six Voyages (Livr . 2 . Ch . 7. P. 237*
2- *Niebuhr - Reisebeschreibung - B . II . S . 293 - 329*
3- *Abbe Joseph de Beauchamp - Journal Des savans , Juin 1784, Observations faites en Asie par Mr. De Beauchamp . P .994*
4- *Von Zach - Monatlich. Korrespondenz T.I.S. 62 T.III. S 508*
5- *Ker Porter - Trav . I . C . Lond . Ed . Vol . II . P . 261*

سقوف هذه الغرف مغطاة بصورة تامة ومبنية على عمق أربعة أو خمسة أقدام تحت الأرض وتتصل مع الطوابق العليا بواسطة الدهاليز الهوائية المفتوحة على استقامة الشمال ويجري الهواء البارد من هذه الدهاليز وهذه المحلات مفروشة بصورة حسنة .

وحسب مشاهدات (١) (Olivier) انه فى أشد درجات الحرارة عندما تصل الى ٣٤° أو ٣٥° (رهآمور) (أو ٤٣ ـ ٤٤ سانتيغراد) في الغرف تصعد درجة الحرارة في هذه السراديب الى ٢٥° أو ٢٦° (٣١° أو ٣٢ سانتيغراد) فقط . ولكن مقابل هذه الحرارة العالية في الصيف تهبط الى الانجماد في الشتاء .

ويروي (نيبور) انه حدث في ليلة من ليالي شباط ان تجمد عشرون شخصاً في الشارع وماتوا وكان الماء منجمداً بطبقة يبلغ سمكها نصف اصبع .

ولاحظ (بوشان) ان درجة الحرارة في الساعة الخامسة كانت درجتين تحت الصفر لكنها ارتفعت عند الظهر الى عشرة أو اربعة عشر درجة . ومع ان هبوط الحرارة الى تحت الصفر كان قليلا الا انه كان يؤثر بشكل قوي على صحة سكان البادية . وقد مات بسبب البرد في القافلة التى كانت تسير في شباط (٢) ١٧٨٣ من حلب الى بغداد نصف الجمال تقريباً وسبعة اشخاص من العرب الذين نستطيع ان نقول انهم كانوا عراة تقريباً . ومنع الثلج هذه القافلة ثلاثة عشر يوماً من مواصلة السير في الطريق . وبينما كانوا يحتاجون عادة الى (١٥) أو (٢٠) يوماً لقطع تلك المسافة فقد وصلوا الى

1- Olivier - *Voy* T. II. P. 381

2- Beauchamp - *Journal des Savans*, Juin I. C. 996

منازلهم في هذه السفرة في خمسين يوماً ومقابل هذا يقطع سعاة البريد للتجار الانكليز هذه المسافة في عشرة أيام . (المترجم ـ أي طريق بغداد ـ حلب)

كانت استحكامات مدينة بغداد فى أيام (نيبور) قوية جداً . وقد حاصرها نادرشاه مراراً عديدة لكنه للسبب السالف الذكر اضطر الى الرجوع .

وحسب ما يخبرنا (١) (بوشان) انه بعد مدة في سنة ١٧٧٥ عندما حاصر كريم خان بغداد ، قصفت المدفعية الايرانية المدينة الا ان بغداد تحت قيادة البطل (المتسلم للبصرة) قاومت ثلاثة عشر شهراً فعين هذا الشخص مكافأة على ذلك والياً لبغداد بأسم سليمان باشا .

ويذكر (نيبور) عدا المقابر التي لها كثير من الزوار ، كثيراً من التكايا الاسلامية العائدة للطرق المختلفة ويبحث هنا فقط عن سبع طرق منها وقد خلف المؤسسون المتدينون لهذه التكايا واردات كثيرة .

ولما زار (نيبور) المدينة بلغ النهر في القسم الغربي من بغداد في المحلات الأولى أقصى ارتفاعه فقد ارتفع حينئذ عشرين قدماً أكثر من ارتفاعه الأصلي وبقيت كثير من البيوت والبساتين والحدائق مغمورة بالمياه بصورة مستمرة تقريباً . لذا لم يتمكن من اكمال خريطة المدينة الخاصة بهذا القسم من الساحل . وكان الجسر مشيداً فوق (٣٤) عوامة يزداد عددها في اثناء الفيضان وقد ربطت تلك العوامات فيما بينها بالسلاسل . ولاحظ (نيبور) كما لاحظ (اوليفيه) ان هذه العوامات لم تكن مشدودة بالمراسي لذلك كانت تنقطع سلاسلها في العواصف والفيضانات فتسبب حوادثاً مولمة بسهولة .

---

(1) Beauchamp - Journal des Savans - Juillet 1734 . Vol . 58 . P. 1406

قارن : Olivier . Voy . I . C . 11 . P. 348

ويذكر (نيبور) ان عدد الجوامع ذات المنائر يبلغ عشرين ولكن يخبرنا في الوقت نفسه عن وجود كثير من المساجد الصغيرة . وقد كان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢) خانا ولكن ستة أو سبعة منها فقط كانت مشغولة من قبل التجار الكبار . كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة . وبالرغم من ان وضع المدينة التجاري كان مساعداً جداً إلا ان حركة السفر كانت ضعيفة لأن الادارة تتغير وتفتقر الى الأمن والاستقرار .

ادت الاضطرابات في ايران الى هجرة الكثير من الأرمن الى بغداد الذين كان اكثرهم من اصحاب الحرف والتجار . وكانت التجارة الانكليزية من الهند الشرقية في هذا الدور ، قليلة جداً لذا فأن شركة الهند الشرقية سحبت ممثلها الوحيد من المدينة . وكانت اشغال التاجر البندقي ، الذي يتاجر في المدينة ، هي الرائجة فقط . ولم تخل المدينة من كثير من اليهود .

والمبشرون *Capuciner* الموجودون في بغداد في القرن السابع عشر في وقت (١) (*Tavernier*) كانوا قد غادروا المدينة في ذلك الوقت وهناك راهبان من طريقة (*Carmelit*) يزاولان الطب تقرباً الى الكبار كأطباء . وتمكنا من البقاء في بغداد . وكان هذان الطبيبان يشتغلان كمبشرين ولكن وظيفتهما لم تكن التبشير عند المسلمين لأن ذلك يكلفهما رأسيهما الا انهما اجتهدا في اقناع النساطرة الذين يكثر عددهم في بغداد — وهم من اتباع احد مذاهب النصارى — للدخول في الكنيسة المتحدة الرومانية . وحسبما يروي (نيبور) فانهما توفقا كثيراً في ذلك .

وقد حاول كثير من الأطباء الاوربيين الاشتغال في بغداد لكنهم لم

(1) J. B. Tavernier - *Les Six Voy*. I. C. Livr. 2. P. 230. 236

يكسبوا شيئاً . والواقع ان عدد المرضى كان كبيراً لكن احداً منهم لم يكن يريد ان يدفع الأجرة . وحسبما يكتب (بوشان) ان الاتراك في هذه المدينة يعيشون بصورة بسيطة جداً ولم يفكروا في التداوي لمدة طويلة . وكانوا يعرضون نبضهم لكل اوروبي ويطلبون منه لكل وعكة صغيرة مساعدة حالية . ولا يستدعون الطبيب لمعاونتهم إلا عندما يكونون في حاجة ماسة اليه . وفي اكثر الاوقات يكون الوقت متأخراً لمساعدتهم . وكانت الامراض الاساسية (الحمى الخبيثة) وهي منتشرة في اشد مواسم الحر .

يكتب (نيبور) اسماء الولاة حسب تواريخهم ، من الوالي الأول (حسن باشا) المعين في سنة ١٦٣٨ الى الوالي الذي كان اثناء زيارته وهو [1] (عمر باشا) وقد عين في سنة ١٧٦٤. وقد بلغ عددهم في خلال (١٢٦) عاماً ثمانية واربعين والياً ويعني هذا ان كلا منهم بقي في عرش الولاية بمعدل سنتين ونصف السنة . والاسباب المؤسفة لهذه التغيرات هي الحرص ، الثار ، الخدعة ، القتل ، الثورة ومختلف انواع المآسي وهذه الاوصاف كانت موجودة عند حكام البلدة كأشياء طبيعية .

وقد اصبح لوالي بغداد قوة كبيرة منذ ايام (نادر شاه) . وفي هذا الدور عندما هدد الفرس منطقة دجلة الجنوبية تحت قيادة نادر شاه اضطر الباب العالي لتركيز قوة كبيرة في بغداد ليستطيع مقاومتهم .

وقد كثر نفوذ الانكشارية في العصر الاخير لدرجة انهم كانوا ينتخبون الوالي ويعرضون اسمه على السلطان للتصديق عليه فقط . وبهذا كانت ولاية

---

(1) *Niebuhr - Reisebesch . T . II . S . 309 - 311*

بغداد من سنة (١٧٠٢) تنتقل بصورة وراثية تقريباً بيد عائلة حسن باشا الثاني الالبانية الأصل.

وحيث ان بغداد بعيدة جداً عن الآستانه، فأن الغاء جيش الانكشارية لم يغير شيئاً كثيراً من نفوذ الباب العالي المباشر في بغداد وكما يروي (نيبور) بالتفصيل (١) اذا دققنا حياة الولاة الثلاثة الاخيرة في الحكم وهم سليمان باشا في سنة ١٧٤٩ وعلي باشا في سنة ١٧٦٢ وعمر باشا الذي تولى الولاية سنة ١٧٦٤ وقطع رأسه في سنة ١٧٧٦ فانهم جميعاً كاكثر اسلافهم لم يموتوا ميتة طبيعية وتلك ظاهرة تكفينا لتفهم الاحوال السياسية المؤلمة التي كانت تتحكم في هذا القطر البعيد.

وكان لوالي بغداد في ذلك الوقت قوة خاصة لنفسه مؤلفة من (٣٥٠٠) شخص وعدا ذلك في الولاية جيش محلي مؤلف من عشرة آلاف شخص مرتبطين بالباب العالي وتحت قيادة الضباط المعينين من قبل السلطان وكان بامكان الوالي في وقت الحرب ان يزيد عدد هذا الجيش الى (٣٦٠٠٠) جندي ولم تنقص هذه القوة بل زادت في بعض الادوار.

ومن باب الصدف فقط لم يتم انفصال والي بغـــداد عن الباب العالي كزميله الخديوي في مصر في هذه الايام. وبالرغم من الاحوال الغير مستقرة التي ذكرناها سابقاً، فان الوالي الذي يحكم بالعدل والارادة كان في وسعه ان يوفر حياة مريحة لسكان المدينة.

وعلى ما يروي لنا (بوشان) (٢) الذي سكن بغداد ستة اشهر بين

---

(1) *Niebuhr - Reisebesch. II. S. 311-323*

2 *Beachamp - Voy. second article, Journal des Savans, Juillet 1784. Vol. 48. P. 1415*

سنة ١٧٨١ وسنة ١٧٨٢ ، ان دفاع المدينة كان جيداً فالأمن سائد في كل الأماكن والتجارة مزدهرة ولم يؤذ النصارى بأي شكل ما . وكان عدد السكان يزداد في المدن وخاصة في بغداد وبالرغم من هـذا فأنهم لم يشنقوا احداً في بغداد كما لم تحدث جرائم قتل ، وخلال اقامته في بغداد قبضت دورية الشرطة في الليل على اثنين أو ثلاثة من اللصوص اثناء سرقتهم فخنقوهم في الحال . وسادت السكينة كل الأطراف .

و (نيبور) الذي يتجنب الخطأ دائماً ، لم يخمن عدد سكان بغداد . اما (بوشان) الذي سكن بغداد (المترجم – في المرة الثانية) بضعة سنوات في تشرين الثاني ١٧٨٢ فيخبرنا ان المرء يقطع القسم الشرقي من المدينة معقباً الجدران الخارجية من الباب الى الباب الآخر ، هذباً على الخيل ، في ساعة واحدة وكثيراً ما يصادف اماكن غير مبنية في داخل المدينة . ويخمن سكانها بمائة ألف نسمة تقريباً واغلب الظن ان الطاعون الذي اصاب المدينة في سنة ١٧٧٣ قضى على (٥٠) الى (٦٠) ألف من سكان المدينة . ولم يسجل عـدد الاموات في ذلك الوقت ولذلك فالتخمين الذي جرى يستند الى اذرعة الأقمشة (١) التي باعها التجار لتستعمل اكفاناً للموتى وقد باع حينئذ تاجر أرمني فقط قماشاً بقيمة (٢٠٠٠٠) قرش .

وكانت المدينة في هذا الدور خالية جـداً والاسواق مزدحمة بالناس اثناء النهار وهادئة بعـد الساعة السابعة مساءاً حيث لا يزور الناس بعضهم بعضاً وكان هذا يسري على الوالي نفسه . وتصادف النساء في الطرقات عند ذهابهن الى الحمام فقط . وينسحب الرجال اثناء الليالي الى مخادعهم للراحة .

---

1 - *Beauchamp, Voyages - Second article, P. 1406*

ولم يكن الشرقيون يفهمون بتاتاً ان الاوروبي يسافر في البادية ويصرف الاموال ارضاء لحب الاستطلاع ولهذا كانوا يعتبرون اولئك الاوروبيين في اغلب الاوقات جواسيس. وفي احد الادوار ارسل (لويس الرابع عشر) رسائل مع سفارته للبلاط الايراني وادعى انهم (خرجوا بقصد السياحة طلباً للعلم) ولكن الشرقيين لم يفهموا معنى هذه الجملة (المترجم - هذا غير صحيح فقد ظهر في الشرق سواح مشاهير كأبن بطوطه ، ابن جبير وأولياء جلبي وسائرهم ...) .

والمبارزة من أجل الشرف أو الانتحار بسبب اليأس لم يكونا معروفين لدى البغداديين. وقد اقتبسوا من الكماليات الاوربية الساعات والاسلحة فقط. وهم يعتبرون بقية الأشياء ليست من الضروريات.

ولم يعثر (نيبور) أو (بوشان) على البحوث الفنية التي كانت مزدهرة في وقت ما في مدينة الخلفاء، حيث لم تحتفظ بها المدينة التركية الحالية.

وليس ببغداد سوق للكتب كما هو في استانبول والقاهرة واليمن اذ لم يجد (نيبور) هناك مكتبات لشراء المخطوطات [1] العائدة للمكتبات الفخمة ولمدارس الخلفاء التي كانت مملوءة في حينها بالآثار الكلاسيكية.

والاضطرابات التي كانت تحدث في وقتها من ناحيـة الشرق بسبب قرب المنطقة من الفرس ، أصبحت الآن تحدث في جهة الغرب والجنوب بسبب قربها من العرب الذين كان نفوذهم يؤثر على القسم الغربي من المدينة حيث يسكنه الاعراب. ويساوي هذا النفوذ ، نفوذ الوالي في القسم الشرقي من المدينة المسكون من قبل الاتراك بل يزداد قليلا عنه في بعض الاوقات المساعدة.

[1] *Niebuhr - Reisebesch. - B. II, S. 307*

ويمتنع الاعراب احياناً عن تأدية الجزية فتنتج عن ذلك الحمـــلات لتأديبهم . واثناء هذه الحملات كثيراً ما تتحد القبائل المتجاورة بعضها مع بعض ضد العدو المشترك أو الاتراك مع انهم يعيشون دائماً في حالة نزاع فيما بينهم . وقد حدث عندما كان (بوشان) في بغداد ان امتنعت قبيلة (خزاعل) التي تسكن جوار الحلة عن دفع الجزية فاجبرت على تأدية الرهائن واسكان شيخها في بغداد ومقابل ذلك فأن الشيخ (شعب) صديق الفرس الذي كان يحكم المنطقة الكائنة بين أبو شير والبصرة وهو شيخ ذو نفوذ ، بدأ يزيد في مقاومته لوالي بغداد بصورة مستمرة . وكان والي بغداد يعين ولاة البصرة الذين يقودون جيشاً من (٥٠٠) نفراً في حين ان باستطاعة الشيخ ان يجمع قوة تتألف من (٥٠) الى (٦٠) ألف خيال وله بين (١٨) و (٢٠) سفينة صغيرة مجهزة بمدافع ذات ١٢ حقه وبأمكانه ان يصعد عن طريق شط العرب وينهب ليس فقط البصرة بل يهدد بغداد ايضاً .

وتلي هذه القبيلة قرباً من البصرة على الاستقامة العليا للفرات باتجاه الحلة قبيلة (عرب المنتفك) ولـكن هؤلاء في الحقيقة اصدقاء لهذه المدينة منذ زمن بعيد ولذلك كانوا في حالة نزاع مع قبيلة الخزاعل أحياناً . وارسل والي بغداد سنة ١٧٨٣ (١) الى أسفل دجلة بعض السفن ضد الشيخ (شعب) ونتيجة ذلك حدث تصادم دام ثلاث ساعات ويكتب عنه المؤرخ التركي العبارة الآتية :

« لله الحمد لم يجرح أحد من المسلمين او يستشهد »

أرسل شيخ عرب المنتفك خبراً الى شيخ الخزاعل في الحلة وطلب منه

---

(1) Beauchamp - Men . I , Juillet , P . 1420

وجوب مرور السفن التجارية في الفرات بحرية كاملة لتصل بغداد ولكن عندما رفض هذا الطلب اتجهت خيالة المنتفك المؤلفة من (٣٠٠٠ر٣٠) فارس الى الحلة ولكن الشيخ لقي حتفه في هذه السفرة .

وتاريخ بغداد مملوء بامثال هذه الحملات لقبائل العرب والفرس وتضم الى جانب هذه الحملات في بداية هذا القرن الحملات الموجهة ضد الوهابيين والدسائس التي كانت تنشب بين بغداد واستانبول .

مشاهدات ROUSSEAU و OLIVIER

وفي هذا الدور الذي بدأ فيه النفوذ الفرنسي في تركية وصف لنا بغداد [1] (Rousseau) الذي كان قنصلا فيها بالشكل المطلوب (وكان هذا الشخص صديقاً لبوشان وبقي ببغداد سنوات عديدة ثم اقام في حلب . فنشير بقراءة كتابه لاحتوائه على المعلومات الكافية عن بغداد ـ المؤلف)

والشيء الذى يجلب انتباهنا ان عدد السائحين في وقت نابليون مثل بوشان ، روسو ، اوليفيه (١٨٠٠) ثم Jaubert في سنة ١٨٠٦ و Dupre ١٨٠٨ والسواح المماثلين الذين كانوا يجوبون بلاد دجلة والفرات لمنفعة فرنسا قد زاد عددهم واليهم والسواح الانكليز بعد مدة قليلة ترجع معلوماتنا الجديدة عن بغداد الا انهم يكررون تلك المعلومات عن المدينة واطرافها التي نعرفها من وقت الجغرافيين العرب ومن قبل السائح الألماني (نيبور) وسبب زيارة هذا العدد الكبير من الأوربيين بغداد هو انتشار الأمن في الولاية تحت ادارة (سليمان باشا) الذي اصبح والياً لها من سنة ١٧٧٧ الى

1 - *Description du pachalik de Bagdad , Suivie d'une notice historique ... Par M . Rousseau , Paris 1809*

سنة ١٨٠٢ أي مدة (٢٥) عاماً . وكان الفضل الأكبر في هذه الادارة يعود الى (الكهيا أحمد) الذي كان تحت حماية الوالي .

وكان (الكهيا احمد) رجل دولة بحق ، أدار دفة الحكم على اكمل وجه فهيأ نهضة المدينة . فقد تضاعف عدد سكان المدينة الذي كان (٤٠) ألفاً والتجأ الى بغداد تحت الحماية بين ١٢ و ١٥ ألف ايراني من أصحاب الحرف كما شجعت التجارة [١] وبدأ سكان المدينة المؤلفين من (٥٠) الف عربي و (٢٠) الف من محافظي الانكشاريه والسكان الاتراك يعيشون مع اللاجئين الأجانب منذ ولاية سليمان باشا سنة ١٧٨٠ في دور سعيد .

لكن الكهيا الجسور والغيور الذي شفاه اوليفيه في وقتها من مرض شديد قتله غيلة (علي) نسيب الباشا وصنيعته [٢] . وقد عين هذا الشخص - أي علي - والياً لبغداد سنة ١٨٠٢ بعد وفاة سليمان باشا .

ويشبه (اوليفيه) بغداد بعد عودته من ايران بمدينة فارسية اكثر منها تركية . وقد وجد اسواقها اكثر تكاملا مما وجدها السواح قبله [٣] ويعتقد هذا السائح الذي يرجع اصله الى باريس انه يرى بقية الظرافة الموجودة عند سكان المدن الكبيرة متمثلة في الذوق الكامل الموجود في عادات ومراسيم أهل بغداد وفي لهوهم الرفيع ويشاطره هذا الاعتقاد [٤] (*Keppel*) .

ولم تخلف مدينة الخلفاء القديمة من سكانها الذين بلغوا مليون ونصف

1- *Olivier - Voy . C II . P . 388*

1- *Olivier - Voy . II . P . 403 , Dupre . Voy . I . P . 144*

3- *Olivier - Voy . I . C . P . 382*

4- *J . Keppel . Personal narrative of travels in Babylon , Assyria etc ... London . 3 ED . 8 . Vol . I . P . 248*

شرقي ومن ثروتها غير المتناهية وسطوتها الشـــديده وتجاراتها المنتشره وكمالياتها المفقوده منذ زمن قديم لأحفادها المنحلين إلا الأوصاف المشوقة المار ذكرها .

وحسب ما يعتقد (اوليفيه) (١) ان سكان بغداد كانوا اكثر حلماً في طباعهم من سائر سكان المدن التركية فتعصبهم الديني لايخلو من تسامح ولم يؤد الحسد عندهم الى ظلم كبير وكان اشراف البلده أكثر تأدباً وثقافة وتجارهم اكثر فعالية وتشبثاً وكانت نساء الأغنياء اكثر جمالا وظرافة وحتى نساء الطبقة الواطئة كان تركيبهن جيداً وابدانهن جميلة وخطوط الوجه عندهن منتظمة بيضويات الوجوه ويتكلمن بصوره سليمة وكان النساء والرجال متساويين من ناحية تزيين الحواجب والشعر ولم يصادف في المدينة رجلا ذا لحية بيضاء لأن الجميع كانوا يخضبون لحاهم بالسواد .

وكان (٢) (*Welstedt*) ايضاً متفقاً في هـــذه المعلومات مع سلفه ويوضح خصوصيات البغداديين بدقـــة اكثر من زميله ويحدث لنا عن الكماليات في طراز لباسهم من احذيتهم الملونة وعطرياتهم وماء الورد ، ومن حليهم الذهبية والمجوهرات المصنوعة بذوق بدائي وغـــير سليم ولكن من الذهب الخالص .

اقليم بغداد

ومعلومات (اوليفيه) التي يخبرنا بها عن اقليم ومنتوجات بغداد الطبيعية مهمة جـــداً وهو كطبيب وعالم في العلوم الطبيعية كانت له فرص كثيرة

1 - Qlivier - Voy . II . P . 389 - 392
2 - Welstedt - Trav . to the city of the caliphs . I . P . 262

المشاهدات الشخصية اثناء اقامته الطويلة في المدينة وليست لدينا معلومات اخرى في هذا الصدد . وحسب ما يخبرنا به (١) فان بغداد تقع على سهل تهب عليه الرياح في كل المواسم واقليمه صحي جداً والامراض المعدية في المدينة نادرة (ومع ذلك فقد تفشى الطاعون مراراً عديدة) . وماء دجلة الماء الوحيد الصالح للشرب . والامطار قليلة والسماء صافيـــة حتى في الشتاء والنسيم عليل حتى ان المرء لا يشعر بالرطوبة إلا بدرجة قليلة جداً في اقرب الأماكن من النهر اما الندى فهو غير موجود . ولو وزعت مياه دجلة واقنية الفرات على الوجه الأحسن لتحولت الاراضي الجرداء الى اراض زراعية اذ لا يوجد في العالم منطقة اغنى واجمل وابهى من بغداد وجوارها .

وهذه المنطقة تصلح كل الصلاح لأن تكون مهداً لعلم الفلك . ويقضي اهالي المدينة ليالي ستة اشهر من السنة تحت السماء المكشوفة على سطوح البيوت فتلألأ النجوم في سماءها بمنظر لم يسبق رؤيته في أوروبا . وجلال النجوم وعظمتها في منظرها والاستفادة منها في العلم والزراعة وفائدتها في الحياة كل هذه عوامل دفعت الكلدانيين القدماء هناك لدراسة علم الفلك .

ويفتخر (بوشان) كمطران لبابل بتأسيسه مرصداً للنجوم في بغـداد سنة (١٧٨٤) لأنه أول من أسس مثل هذا المرصد بعد مرور (٢٥٠٠) سنة على الكلدانيين الذين اشتغلوا بالتدقيقات في علم الفلك وبعد ألف سنة على دور الخلفاء . وقد أسس هذا المرصد على نفقـة (لويس السادس عشر) وبحماية (*Lalandes*) لـكنه تهدم مع الأسف نتيجة عـدم العناية به بعد

---

1 Olivier Voy. II. P. 392 - 396

اعلان الثورة الفرنسية (١).

وفي اثناء اقامة (اوليفيه) ببغداد ارتفعت درجة الحرارة في نهاية نيسان الى ٢٣ْ (مئوية) ثم اخذت بالارتفاع تدريجياً الى ٢٦ْ، ٢٨ْ، ٣٢ْ مئوية وصعدت في أوائل حزيران حتى بلغت ٣٨ْ، ٣٩ْ مئوية بينما كانت الرياح الجنوبية خفيفة وقد حملت هذه الرياح معها كثيراً من الجراد واصبح الطقس في الصيف اكثر حرارة فالرياح المحرقة قادمة بصورة مستمره عبر الاراضي الجرداء من ناحية الشمال الغربي للعراق. فترتفع درجة الحرارة في هذه الأثناء وقت الظهر الى ٤١ْ و ٤٤ْ مئوية وتبقى بهذه الشدة حتى المساء. وكانت المدينة في هذا الوقت خالية والاسواق مقفلة من الساعة العاشرة صباحاً حتى المساء حيث يهبط الناس الى السراديب التي تبلغ درجة الحراره فيها بين ٣١ و٣٣ مئوية ويضطر المرء الى شرب الماء بكثرة وحينما تنخفض الحراره في المساء يصعد الناس الى السطوح أو يتأهبون للزيارات ويتناولون العشاء في الهواء الطلق ويعزفون الموسيقى ويمضون اوقاتهم بتناقل الروايات وينامون على السطوح.

اما في الخريف فتتبدل الحرارة وتكون الرياح متغيره واذا اتفق ان أمطرت السماء في هذا الوقت في اراضي الفرات الجنوبية أو سقطت الثلوج في الشمال على جبال (طوروس) فعندئذ تكون الرياح الجنوبية والشمالية مشحونة بالنسيم البارد. واذا مر آخر ايلول دون ان تهب الرياح كما هو في اكثر الاوقات يكون الحر آنذاك بشكل لا يطاق في حين ان درجة الحرارة ٣٥ أو ٣٨ مئوية فقط وحتى في أواسط كانون الأول لا يشعر المرء بالبرد

(1) V. Zach. *Monatlich. Correspondenz der erd. und Himmelskunde* 8; 62

اثناء النهار وتكون السماء في هذه الأثناء صافية والرياح متغيرة من الشرق ، ومن الشمال ومن الشمال الغربي والهواء جافاً وعليلا الا انه غير بارد . وفي الوقت الذي تجلب فيه الرياح الغربية قليلا من الرطوبة والامطار الى مدينة الموصل بصورة منتظمة فانها تسبب الأمطار أحياناً في بغداد .

وهبوب الرياح الجنوبية نادر في أواخر الخريف وأوائل الشتاء واذا هبت فان مدتها تكون قصيرة جداً وهي ليست حارة في هذه الأثناء .

ولا تبدأ الحرارة بالهبوط إلا في أواسط تشرين الاول بصورة تدريجية فتنخفض الى ٣٠ْ ، ٢٥ْ ، ٢٣ْ ، و ١٨ْ درجة مئوية حتى تهبط في أواخر كانون الأول وفي أوائل كانون الثاني الى ١٢ْ ، ١٠ واحياناً ٦ْ و ٥ْ درجات مئوية في النهار وقد لاحظ (اوليفيه) هبوط الحرارة الى الصفر في الليالي وحتى الى درجة تحت الصفر . وتحمل المياه المتراكمة صباحاً طبقة من الثلج بسمك الخط . وبهذا تكون درجة الحرارة في بغداد صيفاً اكثر بكثير من درجة الحرارة في مصر السفلى لأن الرياح التي تهب هناك بصورة مستمره طيلة اليوم من البحر الأبيض تجلب البرودة باستمرار بينما تهب الرياح على بغداد بحرارة محرقة بعد ان تكون قد اجتازت مسافة مئات الأميال عبر العراق وصحراء العرب فتكون قد سخنت .

واقليم البصرة الذي يقع على مسافة (٦٠) ميلا جغرافياً جنوب بغداد اقل حرارة بالنسبة لبغداد . لأن الرياح في البصرة تهب بصورة منتظمة يومياً من جهة الجنوب الشرقي من الخليج الفارسي الى استقامة البر وترتفع درجة الحرارة في هذه المدينة الى ٤٠ درجة مئوية فقط وبالرغم من ذلك فأن المرء يتحمل حر بغداد الجاف بسهولة اكثر من حرارة البصرة المهلكة ويكون

في حر بغداد نشيطاً في حين انه يكسل ويتخدر في حر البصرة . وحسبما يكتب (اوليفيه) فأنه عندما كانت درجة الحرارة في بغداد ٣٨°، ٤٠°، ٤٣ درجة مئوية أثناء هبوب الرياح الشمالية الغربية كان تأثيرها أقل من تأثير الرياح الجنوبية في البصرة بالرغم من ان درجة الحرارة كانت في هذه الأثناء تتراوح بين ٣٣°، ٣٥°، و ٣٧° درجة مئوية وعدا ذلك فان باستطاعة المرء تحمل الحرارة العالية اثناء هبوب الرياح بسهولة اكثر مما لو كانت الرياح هادئة.

ويذكر (اوليفيه) ان الشتاء في بغداد ابرد من جنوب مصر كثيراً بسبب الرياح الجبلية الباردة التي تهب من ايران وكردستان الواقعة في الشمال بينما تكون الرياح الشمالية التي تصل الى حوض النيل قد فقدت برودتها اثناء مرورها فوق البحر . لذا فان اشجار الحناء والموز والأشجار الأجنبية النابتة في مصر لم تنم في بغداد بسبب هبوط الحرارة الى ٣° تحت الصفر اثناء الليل وبنتيجة التجمد ولكن هذا لا يؤثر على الأشجار الحمضية والنخيل التي تنمو في بغداد وتنمو اشجار النخيل في بغداد احسن مما تنمو في مصر . ومقابل الحرارة العالية في النهار يبرد الهواء في الليل فلا تضر الحرارة باجسام البشر.

منتوجات ومصنوعات بغداد

تتبع منتوجات بغداد [1] احوال اقليمها . والأغذية الأساسية هي الرز والشعير والحنطة والتمر وتنمو فيها اجناس مختلفة من الليمون بشكل مبذول وبالرغم من أمكان نمو البرتقال فانهم لا يزرعونه .

وحسبما يكتب [2] (*H. Southgate*) فقد زُرع البرتقال في حديقة

---

(1) *Oliver - Voy . Chap . 16 . 443 - 445*

(2) *Southgate - Narrtive . I . C . Vo. II P . 184*

المستر (Taylor) حيث سكن بغداد سنة ١٨٣٧ لكنه لم ينم بشكل جيد ويفقد الليمون الحلو في بغداد رائحته الذكية وينمو المشمش بدرجة نفيسة والخوخ بصورة متوسطة اما العنب والتين فهما لا ينموان بجودة ولكنهما يفتنان بصورة ممتازة في الأراضي التلية المجاورة.

ويكون تمر البصرة اجود بكثير من تمر بغداد ومصر وشمالي افريقية كما ينبت التوت بنوعيه الأبيض والأسود بصورة جيدة جداً ويوجد في كل حديقة ايضاً النبق وشجرة الخرنوب والعناب وبسبب الانجماد في الليالي لا يزرع ببغداد الحناء والموز وقصب السكر ولكن يزرع في جنوبها على ضفاف دجلة القطن والسمسم والتبغ وبالأراضي القريبة من الخليج الجويت بصورة مفيدة.

والحيوانات الأليفة التي في بغداد عادية الا انها قليلة وهي :

الثور الهندي (Pison) وهو نادر الوجود ويكثر الجاموس والثور عادة. ولا تذبح هذه الحيوانات بل تستعمل لادارة دواليب الماء (النواعير) ولحم الجمل مغذ ولكن قلما يقدم لحم الجمل الصغير على المائدة وان قدم فيكون ذلك عادة في أعياد العرب. ولحم الغنم هو الغـــذاء الاعتيادي وتتوفر الخنازير الوحشية الجيدة في كافة اطراف العراق وعلى سواحل الأنهر بكثرة إلا ان المسلمين لا يأكلون لحومها وكذلك الأرمن فأنهم لا يستسيغونها.

والدواجن موجودة بكثرة في المدن والقرى وفي الوقت نفسه يوجد الحمام هناك الى جانب الطير المسمى بالدراج وهو من الطيور غير الاليفة.

والأرانب موجودة بكثرة في جبال كردستان العالية ونادراً ما تباع في الأسواق اما لحم الغزال الذى يصطاد بواسطة النسر فتأكله الفقراء فقط. وبصورة عامة فان المسلمين نادراً ما يأكلون لحوم الصيد واما الأسماك

التي تتوفر بكثرة في دجلة والفرات فيأكلونها بقلة وتشكل الخضراوات مقابل هذا غذائهم على العموم كالفاصولية والبزلية والشلغم (اللفت) واللهانة والفاصولية الخضراء والبطيخ والرقي والبامية كما يأكلون ايضاً بعض الكستناء والجوز المستورد من جبال كردستان . والى جانب هذا فان انواع البلوط الحلو الذي يرد من كردستان ايضاً مفضل عند آرمن بغداد بالرغم من انه اقل لذة من الكستناء .

ومن الاخشاب المستعملة (١) نذكر هنا الانواع التي يجلبونها من جبال كردستان بواسطة الكلك الى بغداد وهى اخشاب شجرة البلوط ، الجنار ، الجوز ، الحور (قوق) والجام .

ويقتصر استعمال اخشاب الأشجار الموجودة في بغـداد لصنع الاثاث البيتية وهى اشجـــار التوت والنبق والنخل . ولأشعال النار يستعمل الاثل والاعشاب الموجودة على سواحل الانهر والآ كاسيا . عدا ذلك يرفع بعر الجمـــال بواسطة القصب المهشم ثم يغطى بالزفت وتصنع منه قطع صغيرة تستعمل للتدفئة .

ومن الناحية الصناعية وجد (اوليفيه) صناعة الأقمشة الحريرية والقطنية المخططة فقط والخاصة باستعمال العرب . وكانوا ينسجون هده الأقمشة من الحرير الايراني الـكيلاني الخشن ترجيحاً له على سائر الحرائر الاخرى . وكانوا ينتجون ايضاً الأقمشة القطنية النفيسة المطبوعة بأشكال غير لماعـــة لاستعمال النساء والأولاد والناس المنسوبين للطبقة الفقيرة . وتقوم الى جانب ذلك صناعة قطنية والزوالي والمخمل للوسائد والدواوين وترسل بكميات كبيرة الى الموصل وحلب والشام .

(1) Olivier . Voy T . II . P . 446

وكانوا يبيعون برواج وفي نفس هذه الأماكن المصنوعات الفضية والذهبية والجلدية الملونة للبغداديين ويصنعون بعين الوقت كثيراً من الأدوات النحاسية . وفي هذا الوقت على ما يكتب (اوليفيه) ويذكر Dupre (في سنة ١٨٠٨) واذا استندنا على المعلومات المستخرجة من قوائم الواردات والصادرات فأن حالة التجارة كانت في ذلك الحين جيدة جداً بالنسبة لوقت (نيبور) وذلك بسبب الادارة الرشيدة ، ولكن الموقتة تحت ولاية سليمان باشا

مشاهدات DUPRE وشكل الحكومة في بغداد

وأحسن من شاهد احوال بغداد في وقت (نابليون) هو (Dupre) . وكانت السياسة الفرنسية تبذل في هذا الوقت جهوداً واسعة لكسب نقطة ارتكازية على الفرات ضد الأنكليز الموجودين في الهند .

وقد سكن هذا الشخص في بغداد سنة (١٨٠٨) مدة طويلة اثناء ولاية سليمان باشا واعطانا عن احوال الولاية الكبيرة في ذلك الوقت معلومات كاملة حرية بالدرس . وسنورد للقارىء نقاطاً مهمة عن تلك المعلومات ويمكن دراسة هـذا الدور باعتباره دوراً انتقالياً للاحوال الحاضرة التي حل فيها الانكليز مكان الفرنسيين .

وبنتيجة الخداع والقتل جمع سليمان [1] بين اهالي بغداد وفي الباب العالي اتباعاً له وبواسطة حيلته واستعداده حصل على اكبر وزارة ذات ثلاثة ريش (طوغات) وولاية بغداد وقد قبل مقابلة Dupre ثلاث مرات وقد علم هذا السائح الكثير عن سراي الوالي واحوال ادارته . وشاهد هناك كما هو

(1) Dupre - Voy . I . C Vol . I . P . 156

في بلاط استانبول ، نفس الحيل والخدع والدسائس والظلم من قبل الحاكم الذي يحكم بكل سطوة وبشكل مطلق . وكان الوالي وزراء من الدرجة الأولى كما هو في عاصمة الامبراطورية وهم :

الـكهيا ، الدفتردار افنـــدي (سكرتير الدولة) ، الخزينه دار (وزير المالية) ، والقائمقام أو وزير الداخلية الذي يقوم مقام الباشا لدى تركه المدينة وعدا ذلك كان يوجد كثير من اغوات الانكشارية واهل الفتوى والعلماء والقضاة . وكان حكم الوالي مطلقاً الى درجة ان اوامر الباب العالي وان كانت تناقش عادة إلا انها لا تنفذ بتاتاً . بحيث كانت كل مناسبة مع الاستانة تعد مهزلة في الحقيقة . وحتى السلطان لم يستطع ايضاً ان يأخذ شيئاً من واردات الولاية الكبيرة العائدة للدولة .

وكما يذكر (اوليفيه) (١) لم يصل الى استانبول من واردات الولاية البالغة (٤٠٠٠) كيس أو (٤ ملايين فرنك) حتى الثمن ١/٨ . وكان الوالي يرسل خصوصاً الى الوزير الذي يتبعه (الوالي) هدايا بمبلغ بضعة ملايين قرش بواسطة السعاة في نخفخة كبيرة إلا انه يأخذ مقابلها هدايا مهمة ايضاً . والوالي يقدم سنوياً قائمة بواردات الولاية الى الباب العالي ويذكر في الوقت ذاته انه صرف هذه الواردات بكاملها لرواتب الجند الذين يستخدمهم ضد الفرس والعرب والوهابيين ولتعمير سور المدينة والاستحكامات والابراج . وحتى عندما كان الباب العالي يطلب الجنود اثناء الحرب من ولاية بغداد يعتذر الوالي من انه لا يتمكن من الاستغناء عن هؤلاء الجند في سبيل المحافظة على ابعد الحدود للدولة لأن ذلك يعرض سلامة مقاطعته الى الخطر .

(1) Olivier - *Voy*. C . II . P . 398

وكان البذخ في سراي الولاية خلال هذا الدور اكثر من بقية ولايات الأمبراطورية . ففي قصر الوالي يوجد (٦٠٠) خادماً و (حرم آغاسي) و (٨٠٠) شخصاً قائداً لفوج الحرس و (٦٠٠) جندي (نيشانجي) ومحافظ للبلاط .

وعندما يخرج الوالي للتنزه أو للصيد تصحبه حاشية مؤلفة من (٣٠٠٠) شخص فيمشي امام الوالي عشرون (بيك) (كان هؤلاء يحملون البلطات ويمشون عادة امام السلطان فقط)

وللوالي جيش خاص مرتبط بشخصه ومؤلف من خمسة آلاف فرد يتقاضون الرواتب . وعدا ذلك على الولايات الصغيرة التابعة له ان تقدم الجنود بهذا الشكل :

كردستان (٨٠٠٠) وسليمانية (٤٠٠٠) وكويسنجق (٢٥٠٠) وزاخو (١٥٠٠) جندي ومدن كركوك وأربيل وآلتون كوبري (٣٠٠٠) جندي وماردين (٢٠٠٠) جندي اما القبائل العربية التابعة له فتقدم (عشرين ألف) محارب . وبهذا كانت قوة الوالي تبلغ (٣٧٠٠٠) مقاتلا يكونون قوة مهمة .

كانت مساحة ولاية بغداد شاسعة الى درجة أنها ترقى الى دولة كبيرة . فتبلغ حدودها في الشمال الى العمادية وولاية ديار بكر ، وفي الشرق ايران والخليج الفارسي ، ومن الغرب اورفه ، بئر ، تدمر وبادية العرب وكانت البصرة ولاية تابعة لبغداد ولم تكن مساحة الولاية ولا سكانها محدودتين تماماً .

تتفق معلومات (روسو) ومعلومات (اوليفيه) عن عدد سكان مركز الولاية في هذه الفترة وحسب رواية (١) *Dupre* ان الطاعون قضى

---

(1) *Dupre - Voy. I. C. P. 174.*

في سنة ١٧٧٣ على ثلث سكان المدينة وكانت البقية (١٥٢٢٢) عائلة مؤلفة من (٧٦٠٠٠) شخص بينها (ست) عائلات اوربية و (ستة) يونانية و (ثمانية) سريانية و (٩٠) كلدانية و (١١٢) أرمنية و (٢٠٠٠) يهودية و (١٣٠٠٠) عائلة اسلامية مؤلفة من العرب والاتراك والعجم . وكان بين المسلمين ولا سيما الاشراف والتجار الكبار من يتظرفون في البستهم فيسيرون بفخفخة مرتدين الألبسة المصنوعة من الأقمشة الهندية والشالات الكشميرية . اما النساء اللواتي لم يكن ينزوين في الحرم فهن من اصل عربي ولونهن زيتوني وخطوط وجوههن غليظة واكتافهن عريضة ويكثر الوشم على سواعدهن ويحملن حلقات كبيرة من الذهب في انوفهن وشفاههن . . .

ويتراوح عدد الزوار الذين يمرون من بغـداد سنوياً في طريقهم الى كربلاء للزيارة واكتساب لقب الكربلائي - كما يكتسب زوار مكة لقب الحاج - بين (١٥) و (٢٠) ألف نسمة ومرورهم هذا من مدينة بغداد كان بلا شك يؤثر على تجارة ومصنوعات المدينة .

وحسبما يعتقده *Dupre* فأن ولاية بغداد كانت بين ولايات الامبراطورية العثمانيـة الوحيدة التي يصاب فيها المسيحيون واليهود بأقل اذى . فكان في امكانهم لبس حتى الأحذية الصفراء في بغـداد بينما يمنع ذلك في سائر مدن تركيا .

فيجب على البالغين منهم ان يدفعوا عن كل شخص مبلغ ١١٠ بارات (كل ٩٠ باره تساوي قرش واحد - ٩٠ سنتيم) كجزية (ضريبة الرأس) للحكومة وتبلغ الجزية في الالوية الكردية (١٥) قرشاً .

وكان للرهبان *Kapuciner* في ديرهم بيعة كاثوليكية واحدة فيها قس

واحد ليس لديه أي تأثير على الكنيسة الشرقية الكاثوليكية . اما منطقة البطريق في (القوش) فكانت تمتد حتى الى الكلدانيين في بغداد .

والمعلومات التي ذكرها لنا (١) (*Dupre*) عن اقليم بغداد تطابق معلومات (أوليفيه) ومقابل هذا تذكر اقوال *Dupre* ان الحرارة ترتفع في الصيف في بغداد اكثر مما افاد (أوليفيه) وتصل الى ٤٧ وحتى الى ٥٠ درجة مئوية ولم تكن ضربة الشمس من النوادر وتتجمد المياه مراراً في الشتاء إلا ان الثلوج لا تنزل . ويوجد في بغداد ايضاً كما يوجد في حلب وماردين وغيرها من المدن مرض حبة بغداد (الأخت) إلا انه ليس بالمرض المخطر لكنه مزعج . وعلى ما يذكر المبشر(٢) (*Southgate*) تكون جروح الوجه ذات الندب عند الناس بصورة عامة . ولا ينجو منها حتى الأوربيين الذين يسكنون بغداد سنوات عديدة .

وقد اتفق كل المشاهدين على نقطة واحدة الا وهي انه اذا غمرت مياه الفرات ودجلة وديالى السهول المنبتة لغرض السقي تكون بغداد وجوارها اجمل حديقة في العالم وبالرغم من ان هذه المنطقة بقيت كبادية بنتيجة اهمال الحكومة وعدم اهتمام الأهالي بها ونتيجة الجهل فان صادراتها كانت تتراوح بين (٣٠٠) و (٤٠٠) آلف قرش سنوياً من حاصلات التمر والرز والتبغ والقطن والحرير والعسل ويمكن رفع هذا المبلغ الى اضعافه بكل سهولة .

ويأخذ الوالي بصورة غير مباشرة بالفضة او بالعينيات خمس المنتوجات ونستعمل هنا عبارة غير مباشرة لأنهم كانوا يعطون الأراضي والقرى بالضمان للملتزمين . اما الملتزمون فهم بعد تسديد مبلغ الايجار يضيقون على الفلاحين

(1) *Dupre - Voy . I . C I . P . 181*
(2) *H. Southgate - Narrative of a tour etc .. Vol II . P . 176*

ولم تكن لهم (أي للفلاحين) بهذا أية حقوق وعليهم في الوقت نفسه ان يدفعوا ضريبة الأرض والميري الى المالية وعـدا ذلك فعليهم شراء حق الاشتراك في الماء بصفة خاصة . وقد كان الربيع الذي يمر بدون مطر في اكثر الأوقات يسبب جفاف المزروعات قبل أوانها .

التجارة في بغداد

حسبما يدعي (١) Dupre ان التجارة كانت في الوقت الذي زار فيـه بغداد مهمة جداً . بالرغم من كل العراقيل . واثباتاً لذلك نذكر عن التجار من الأقوام المختلفة الذين كانوا يتاجرون ببغداد والقوافل التي كانت تصل يومياً من ايران وعربستان وسوريا ومبادلة المبالغ الكبيرة من النقود بين بغداد والمدن التجارية كحلب والشام واستانبول واصفهان وتفليس وطوروس وارضروم وغيرها . وكانت اكثر الصادرات عن طريق البصرة بحراً على البواخر الانكليزية والعربية الى الهند وبومباي وتدخل من نفس الطريق بواسطة الخليج الفارسي كثير من البضائع الأوربية وهذه البضائع الأخيرة تأتي ايضاً عن طريقين آخرين أولهما من استانبول عن طريق حلب وثانيهما من استراخان عن طريق بحر قزوين وكانت الاستيرادات الأساسية تسير من سوريا بواسطة قوافل الجمال والخيل والبغال ، وحمولة الخيل والبغال تبلغ معدل (١٢٠) حقة للواحد بينما تبلغ حمولة الجمل (٢٤٠) حقة . اما مبلغ ما يدفع لنقل الأموال الثقيلة الواصلة من حلب والشام فهو (٨٥) قرشاً لكل حمل بغل و (١٠٠) قرش لحمل الامتعة الخفيفة كالاقمشة والأغطية وغيرها . واذا عبرت القوافل الحلبية من العراق كانت مصارف النقل الكمركية تزداد

(1) *Dupre Voy. I. C. I. P. 184*

آنذاك بين ٢٠ الى ٢٥ ٪ ولنقل الحمولة المسماة (*Centner*) (١٨٠) حقة على الخيل أو البغال من استانبول الى بغداد كان يجب دفع (٢٥٣) قرشاً والشالات والأقمشة الحريرية المصنوعة من (*Guzurate*) والأمتعة الثمينة كالساتان واللؤلؤ تنقل بواسطة الـ (تاتارية) الذين هم السعاة الرسميون للباب العالي وهؤلاء يتقاضون كأجرة النقل لكل حقة بين عشرة وعشرين قرشاً وكان سعاة البريد يقطعون الطريق بين بغداد واستانبول (١) بين (١٥) و (٢٠) يوماً عادة وفي الأيام الأخيرة أي في سنة ١٨٣٧ اخذوا يقطعون هذا الطريق في مدة تتراوح بين (١٢) و (١٣) يوماً . وقد زادت المواصلات مؤخراً الى درجة كبيرة بحيث تصل الرسائل من انكلترة عن طريق بيروت والشام وهيت في (٤٥) يوما بصورة منتظمة الى بغداد وكان (التتارية) أو سعاة البريد يحتاجون الى (١١) وحتى الى (٨) ايام فقط للوصول من بغداد للشام . ويقطعون الطريق بين الشام وبيروت في يومين ومن بيروت يذهب البريد بالبواخر الى أوربا

الملاحة النهرية

أما الحمولات التي كانت ترسل من بغداد الى البصرة عن طريق النهر فلم يكن لها سعر معين . فيدفع في زمان (أوليفيه) للبالات التي وزنها (١٥٠) حقة (١٢) قرشاً وللبضائع الثقيلة (١٥) قرشاً واذا كان نقل البضائع ضد مجرى النهر فعند ذلك تتضاعف اجرة النقل وتكون هذه النقليات مرتبطة بفعالية السير في الفرات . والعمل الرئيسي لسكان السواحل والربح الأساسي للقبائل في العراق والفرات العربي هو تغذية الحيوانات للقوافل ومرافقتها

---

(1) H. Southgate - Narrative I . C . Vol I1 . P . 185

بالاضافة الى تزويدها بالزاد ولا شك انه يفهم من هذا التأثير الكبير لمواصلات البواخر والتجارة الكبيرة المستمرة على هذه المنطقة سكانها . وهـــذه التجارة المزدهرة بين الشرق والغرب تحتاج الى هذا الطريق حاجة ماسة .

ويشير (١) Dupre الى السياحة النهرية الى البصرة حيث ان دجـــلة مستقيم بالقرب من بغداد ثم يبدأ بالانحناء كلما توغلنا جنوباً وهو في ذلك اكثر من نهر الفرات . وكان سير السفر صعباً بنتيجة الكثبان الرملية المكدسة الا ان السفر لم يكن مخطراً لأن جميع السفن السائرة في دجلة مستوية القعر حتى انه في احد المرات وصل (fregatte) (٢) انكليزي حتى بغداد سالماً واصبح من المعلوم في الايام الاخيرة ان (اج) بدأ يسير السفن التجارية في البصرة على طريق بغداد حتى مصب الزاب الصغير وتسمى في بغداد والبصرة الزوارق المصنوعة من سيقان النخل أو شجرة التوث لاستعمالها في الفرات (التكنة) وهي مغطاة بطبقة كثيفة جداً من القير وتكون هذه الزوارق طويلة وعريضة وهي تحمل حمولة من (٢٠٠٠) Centner ولها قمارتان عاديتان وعمود واحد وستة مجاذيف ولكن هـــذه الزوارق يجب سحبها عند سفرها إلى اعالي الفرات لذا كانوا يقطعونـــ المسافة بين المدينتين في مدة شهرين اكثر الاوقات بينما تقطع زوارق البريد عين الطريق في (١٢) يوماً وتكون المرحلة الاولى من البصرة الى القرنه ثم يصلون بطريق الفرات الى سوق الشيوخ خـــلال يومين أو ثلاثة ، اذا كان هبوب الرياح مساعداً والمحطات الباقية في الفرات على استقامة الشمال هي (Tacta ?) ، سماوة ، (Ardjah ?) والحلة . ويذهبون من الاخيرة الى بغداد على ظهور خيـــل

---

(1) Dupre - Voy . 1 . P . 186

(٢) نوع من السفن .

البريد وقد بدأوا يسيرون مؤخراً متوغلين في دجلة اكثر من قبـــل حتى بلغوا بغداد رأساً .

وحسبما يكتب *Welstedt* (١) فانهم كانوا يحملون في اكثر الاوقات هذه الزوارق في دجلة مثل (البراميل) في الخليج الفارسي حمولات من وزنه (١٠٠) الى (٢٠٠) طن ولهذه الزوارق مجاذيف قوية وعمد قصيرة واشرعة لاتينية ويقطعون في الماء بسرعة (أربعة) أو (خمسة) اقدام ويسيرون في السنة مدة سبعة اشهر لأن المياه تكون قليلة في الاشهر المتباقية . ويتحركون في اكثر الاوقات من البصرة مع الرياح الشمالية الغربية في الاسبوع الأول من كانون الأول ويقطعون الطريق في مدة شهر . ويسحبون هذه الزوارق في مدة عشرة ايام مسافة تبلغ (٤٢٠) ميلا انكليزياً وساحبوا هذه الزوارق من الرجال الاشداء ويسمون بـ (الملاحين) واجرتهم يومياً تبلغ (١٥) قرشاً أي ٥/٣ دولاراً وهذه المبالغ ضئيلة جداً بالنسبة للجهد الكبير الذي يبذلونه لمقاومة النهر القوي الذي يقطع تياره خمسة أو ستة اميال انكليزية في الساعة احياناً . ويشتغل هؤلاء بدون توقف منذ طلوع الشمس حتى غروبها باستثناء خمسة اوقات لتأدية واجبات الصلاة ويربطون الزوارق اثناء الليالي القصيرة .

ويتبدل الطريقان التجاريان بين الهند وايران وفق الاحوال . ففي الايام الأخيرة قل السفر من ايران وتضاعف من الهند . وزوارق دجلة صغيرة نادراً ماتسير منفردة وتسير في اكثر الاوقات بشكل قوافل مؤلفة من (١٠) أو (١٥) زورقاً للدفاع ضد غزوات الشيوخ الصغار في السواحل وعلى كل زورق أن يدفع عدا الهدايا المعتادة خراجاً يعـــادل (٣٠) دولاراً تقريباً لقبائل العرب من بني لام والمنتفك وغيرها .

---

(1) *Welstedt - Trav . to the city of the caliphs I . P . 271 .*

الكمارك والرسوم

وليس للكمارك تعريفة ثابتة ويكون التخمين بموجب الرغبات والاحوال ولهذه الواردات صنفان : يعتبر الثقل كأساس ويؤخذ ٨ ١/٣ بالمائة رسماً ويسمى هذا الرسم (بالسقط) أو يعتبر الطول كأساس كما هو معتاد في الأقمشة ويؤخذ ٥ بالمائة ويسمون هذا الرسم (صاغ) وعدا ذلك يستقطع مبلغ قرش عن كل بالة كرسم وتشكل هذه الرسوم مورداً للخزينة يقارب مليون قرشاً وبالأضافة الى ذلك تضم الى واردات الولاية الضرائب المستوفاة عن الميري وعن الاراضي والجزية (الضريبة التي يدفعها غير المسلمين عن كل شخص بالغ) ومن المحصلات (أو المبالغ التي يدفعها ملتزموا الاراضي كأيجار) والضرائب الجزائية التي تستوفي من العرب والأكراد واليزيديين وعدا ذلك المبالغ التي تحصل من الأرث والحجز واموال الرشوة بنتيجة بيع المناصب !.

مقاييس وأوزان ومسكوكات بغداد

كانت المقاييس والأوزان الموجودة في بغداد مجهولة قبلا تماماً . وقد كلف *Lalande* العالم الفلكي (بوشان) في هذا الوقت ليحسب تلك المقاييس والاوزان ليساعد ذلك على المبادلة التجارية لكنه ادى من تلك المهمة جزءها ولم يتمكن من اتمام الباقي ، لأن نابليون سحبه من وظيفته في بغداد وارسله الى القاهرة .

وبعد هـذا الشخص اعطانا (*Dupre*) معلومات بشكل واضح عن المقاييس والأوزان في بغداد استقاها من اسواقها نفسها ونحن ندرجها هنا

ليتفهم المرء الاحوال التجارية في الشرق بصورة عامة. حسب Beauchamp (١):

حقة بغدادية واحدة — ٤٠٠ درهم

مثقال واحد — ١ ١/٢ درهم

درهم واحد — ١٦ قيراط و $\frac{٣}{٤}$ حبات (Grain).

ونسبة درهم بغداد الى الدرهم الفرنسي تعادل نسبة $\frac{١}{٢}$ ١٦ غران ١٨ أو

$\frac{١}{٤}$ ٨ الى ٩ قيراط.

حقة بغدادية واحدة أو (اوقة) — باونين ١٢ Unz ٦ Gros و ١

Den من وزن السوق الفرنسي.

أما (Dupre) فيقدم الارقام التالية:

٤ حبات (Gran)	=	قيراط واحد
١٦ Gran	=	١ درهم
١٠٠ درهم	=	١ وقية
٤ وقيات	=	١ حقة
٣ حقات	=	١ رطل
٢ رطل	=	١ من أو بطمان
٤ من	=	١ وزنة
$\frac{١}{٢}$ ٧ وزنة	=	١ قنطار
$\frac{٢}{٣}$ ٢ قنطار	=	١ اطغار = ٤٨٠ حقة أو

(1) Beauchamp - Lettre a Lalande - In von Zach monatl. Corresp S. 66.

Centner ١٢ ٥٠ باون ١٤ Unz من أوزان السوق .

١ مثقال = ٢ ١/٢ درهم للذهب أو الفضة أو اللؤلؤ .

وكانوا يزنون اعمدة الفضة بـ (چكي) — ١٠٠ مثقال .

واما وزن بغداد فهو ٣ ١/٢ مرة اثقل من وزن استانبول واما الذراع الحلبي المستعمل في كافة الأقمشة الاوربية فيساوي ٢٦,٢ ، بينما كان الذراع البغدادي المستعمل في كافة الاقمشة الايرانية والهندية والبغدادية مساويا الى ٧٥,٢٥ .

وكانت النقود كما هي في تركيا ولكن القرش ، عين ، فهو يستعمل في كل المقاولات من (٦٣) پارة ولكنه لم يكن يحسب على اية حال بأقل من (٦٠) پارة قطعياً وهذه القروش القديمة من الفضـــة الخالصة ومضروبة من زمن السلطان احمد لأن المسكوكات بدأت تتردى منذ ذلك الحين وحل النحاس بدل الفضة كلها تقريباً وكانت الوضعية المالية للباب العالي في سنة (١٨٠٩) رديئة بدرجة انه اشترى كل (الدوكات الهولندية) و(Zechin) لاذابتها حيث سك من كل قطعتين (دوكات) بقيمة (١٨) قرشاً ثلاثة مسكوكات ذهبية تركية قيمة الواحدة (ثمانية) قروش وقيم النقود الاجنبية في بغداد مختلفة جداً وكثير من هذه المسكوكات من الدوكات الهولندية والزهينات البندقية والقروش الاسبانية و (تاليرات ماريا تروزيا) النمساوية تذهب الى الهند . ويباع اللؤلؤ وشالات كشمير مقابل المبالغ النقدية فقط . ونحن نترك طبعاً للممثلين الانكليز لشركة الهند الشرقية في البصرة وبغداد امثال Hartford Jones ، Sam ، Manesty و Ricu . CL وسائرهم ان يدفعوا عن انفسهم تهم المخابرين الفرنسيين . فحسب ما يدعي الفرنسيون كان

هؤلاء الانكليز يستعملون ضد منافسيهم السياسيين والتجاريين أو الفرنسيين الحيل والخدع ويوزعون الرشوة .

ونكمل هذه المعلومات بذكر قائمة البضائع المستوردة ومنتوجات بغداد سنة ١٨٠٨ عطفاً على المعلومات الدقيقة التي ذكرها (١) (*Dupre*) :

١ — البضائع الأجنبية في سوق بغداد

من أوربا : — الملاءات ، المخمل البسيط والمخطط والمذهب ، الساتان ، قز تافتات ، لوسترين ، غالونات ، *Paillettes* وغازات .

بضائع مختلفة :

ساعات ، قضبان حديدية ونحاس ، كريستالات ، بنادق ، مسدسات ، مرجان ، كهرب ، حديد ، فولاذ ، قالاي ، زمرد ، الماس ، قرمز ، زرنيخ ، ارسنيك ، احمر قاني ، ارجواني ، زنجفر ، مينا ، قنقينة ، الأبر ، الفرو .

من تركيا : الملاءات ، الموسلين الملون ، الأقمشة الحريرية (آلاجا ، قطنى ، كرمسود ، كوزى وبياضلي) ، حرير ، عطر الورد ، صابون ، دهن زيت ، بنادق ، مسدسات ، ادوات اخرى وخشخاش .

من عربستان : جمال ، خيل ، غنم ، قهوة ، عنبر .

من الخليج الفارسي : السمك المقدد واللؤلؤ .

من ايران : شالات كشمير ، زوالي كاشان وكرمان ، الصمغ المسمى *Opponax* أو الشريس والفراء ، المطاط ، آمونياك ، اقمشة حريرية مستوردة

(1) *Dupre - Voy . I . P . 199*

من يزد وكاشان، اقمشة ملونة ، قطني ، حرير ، *Gummi Tragant*
Krapp ، من (يسمونه ايضاً كرنكبين وسركج) زعفران، *Rhabarber*،
النفط الأبيض ، حجر جهنم ، الفرو ، جلد الغنم ، الأثمار المجففة ،
پان زهر ، الفليونات والتبغ .

من الهند : موسلين ، أقمشة منقوشة عادية وملونة (كلمكار) ، اقمشة ملونة ،
اقمشة قطنية وحريرية مثلا (كرمسود ، چتارا ، آلاجا ، قطني
و *S'avai*) ، بالات قطنية ، الخزف الصيني ، الجويت ، سكر ،
فلفل ، دارصين ، مسقط ، قرنفل ، *Gardamon* ، شجرة العود ،
Assafoctida ، كافور ، كبريت ، ويتريول ، كركم ، زنجفيل ، ملح
الامونياك ، *Mirobalanen* ، بلسم ، خشب الصندل والعطريات وسائرها.

٢ — منتوجات بغداد

المنتوجات الطبيعية وهي الرز ، الحنطة ، الشعير ، القطن ، الحرير ،
العسل ، التبغ ، عفص ، الحناء ، الصوف ، الخيل ، الجمال ، الجلود ، جلود
الجاموس ، جلود الأغنام ، زفت أسود أو نفـــط ، صودا ، ملح نشادر ،
الملح وبوراكس .

المنتوجات المصنوعة في بغداد وهي :

الموسلين العادي المسمى (سكري) ، المطبوعة (بصمة) والمصنوعة ،
أقمشة حريرية وقطنية ، اقمشة ملونة ، بالات قطن ، دسمـــال (جنس من
أقمشة الحرير) ، بوشي ، مناديل حريرية ، تافت ، شالات ، كچه (كليم
من الحصير) ، زوالي منسوجة ، عباءات ، زجاج وصابون .

احوال بغداد في الثلاثين سنة الاخيرة

(١٨٠٠ — ١٨٣٠)

وفي الوقت الحاضر (أي في وقت طبع الكتاب ١٨٤٤)

ربما كانت بغداد منذ بضعة عشرات السنين الأخيرة مثالا بارزاً للهند والمدن الأوربية المجاورة عن كيفية انقلاب العواصم الشرقية الى خرائب بعد ان كانت مرفهة وسعيدة فتعرضت لتغير عظيم نتيجة للطاعون والاستبداد. وبلا ريب ان المعدور لمدينة بغداد هو الدور الذي عقب سقوط الامبراطورية الفرنسية في اوربا فزاد في ذلك الوقت نفوذ الانكليز والهند الشرقية على سواحل شط العرب وفي كل الشرق الأدنى. وكانت بغداد مدينة بتلك النهضة لواليها القدير داود باشا والى ادارته التي دامت مدة (١٧) عاماً ، وقد كان هذا الشخص على غرار محمد علي باشا والي مصر ، يرغب ان يحكم البلاد على النظم الأوربية ، وقد سار في هذا الطريق.

لكن الطاعون الذي أصاب الشرق باجمعه كسوط التأديب سنة ١٨٣١ وضع حداً لذلك الرفاه وخرب كل مشاريع العظماء بشكل فظيع وترك في كل الأمكنة التي حل فيها الفراغ والجوع والبؤس والخراب فامست بغداد ظلا لبغداد السالفة وتتوفر المعلومات عن هذا الطاعون لدى السواح الذين عاشوا ذلك الدور امثال :

Buckingham 1816 ' M C. Kinneir 1812
G. Keppel 1824 ' Ker Porter 1818
B. Fraser 1834 ' J. T. Stocqueler 1831
Welstedt 1840 , H. Southgate 1837

وشهود العيان الباقين.

وقد بحث Buckingham و Ker Porter عن بغداد مباشرة بعد Kinnier . وقد وصف الأخير في ظروف مناسبة ولاية بغداد (١) كشاهد عيان فتناول الموضوع من وجهة النظر الشخصية الانكليزية في الوقت الذي قدم لنا فيه (٢) Rousseau وجهة النظر الفرنسية .

ونحن نتقبل هذه المعلومات من هذين الشخصين كمصادر موثوقة وهي معلومات اعتمدنا عليها واعتمد عليها سلفهم وبين هـــذه المعلومات أوصاف خصوصية عن احوال مركز الولاية التي كانت فى تقدم مطرد حينذاك تولى الولاية في هذا الدور (اسعد باشا) اولاً ثم اعقبه داود باشا .

ووجد في بغداد آنذاك شخصية قديرة على رأس القنصلية البريطانية وهو المستر J . Cl . Rich . وكان Belino الاختصاصي في الآثار القديمة سكرتيراً له وبجهود هـذين الشخصين المتضامنة امكن تدقيق الآثار القديمة الموجودة على منطقة الفرات بصورة فنية وقد سجلت هـــذه الجهود تقدماً محسوساً .

وأوصاف بغداد مذكورة بصورة مفصلة في كتاب (٣) Buckingham في سبعة ابواب وهو يعتبر في نظر من خلفه ذا معلومات صحيحة ولكن تحليلاته غير موفقة الا ان هذا الشخص كان اكثر استكمالا للموضوع ولاطلاعه على الاوراق والمجموعات والمشاهدات الخاصة بـ (ريج) يبحث

---

(1) Mcd . Kinneir , Gogr . Mem. of the Persian empire Lon . 1813 . 4 . Pashalik of Bagdad . P . 236 - 312

(2) Description ,du Pachalik de Bagdad Par M . Rousseau , Consul General de France a Bagdad Paris 1809 . 8 .

(3) J . S . Buckingham - Travels in mesopotamia London 1827 . 4 . Chapt . 20 - 27 . P . 371 - 552

عن مسائل جديدة وجديرة بالبحث . ولكن حسبما يذكر (فرازر) (١)
فان وصف المدينة وأبنيتها من قبله جاء بشكل رومانتيكي خيالي من جانبه .
وحيث ان قوة هذا الشخص الخيالية دقيقة فلن نبحث عن تلك المعلومات
التي استقيناها منه إلا اذا لم تدعم بشهود عيان اخرى .

فحسب ما يذكره ان كل بقايا الأبنية القديمة في بغداد كانت اجمل من
البنايات الحديثة تماماً وان الأبنية الحديثه رديئة ويتوفر في الأبنية القديمة
قليل من الجمال من الطراز المعماري القديم . ولا يعتمد المرء على المعلومات
المذكورة من قبله عن شكل أبنية الجوامع ويصف داخل المدينة كحلزون
غير منتظم من الأزقة الضيقة . وقد كان قصر الوالي واسعاً ، فيه غرف
كثيرة للموظفين والخدم والحرس واصطبلات للخيول إلا انه لم يكن شيئاً
غير اعتيادي وقد تألف اكثر هذا البناء من أبنية مختلفة مبنية الواحد فوق
الآخر بشكل غير منتظم .

وعقب ادارة المماليك التي كان في اثناءها يتعاقب العبيد على ادارة الولاية
(اسعد باشا) أول والي مولود في بغداد وقد كان والده (سليمان باشا)
كرجياً اسلم بعدئذ كبقية المماليك . وقد تألف فوج حرسه من الكرج
الجريئين والمعروفين بقوامهم المتناسب

واكثر زوجات اشراف بغداد حينذاك من النساء الكرجيات الجميلات
وكان للسنة من المسلمين فقط امتياز امتلاك الجواري البيضاوات فكانوا
يتزوجون بهن بعدئذ . بينما لاتباع المذاهب الاخرى حق امتلاك الجواري
السوداوات فقط . فكانوا يتزوجون بهن ايضاً .

---

(1) J. Baillie Fraser *Travels in Koordistan, Mesopotamia etc.* London 1840. 8. Vol. I. P 217

وقد ارتقى (اسعد) لمنصب الولاية برغبة الشعب التي تمثلت بالعرائض المقدمة للباب العالي .

وكانت حدود الولاية الأسمية تمتد من البصرة الى ماردين ومن كردستان وايران الى فلسطين وعربستان ومع ان نفوذ الولاية كان محدداً جداً بنتيجة نفوذ رؤساء الاكراد وشيوخ العرب الا أن الوالي كان بنفوذه مستقلاً عن استانبول وقادراً على المحافظة على استقلاله بالقوة العسكرية .

ونتيجة الادارة المستبدة ساد الفقر في المدينة بالرغم من وجود بعض الاغنياء ومع ذلك ارتفت التجارة خصوصاً مع انكلترا فبينما بلغ عدد السفن الواصلة سابقاً سفينتين ارتفع عددها الى ستة سفن انكليزية محملة بالمنتجات الهندية وعدا ذلك كانت كثير من السفن العربية تصل الى هناك بالنظر لأن اسعد باشا خفض رسوم الكمارك . وكانت كثير من السفن السائرة في دجلة تتقدم الى بغداد . ولم تكن السفن تمر من الفلوجة والحلة لاختلال الأمن في السواحل لوجود الاشقياء والقبائل العاصية .

وقد امتازت ولاية بغداد بين كل الولايات التركية بانها الولاية الوحيدة التي كانت التجارة فيها حرة ورسوم الكمارك خفيفة بحيث كان الوالي في هذا الاثناء فقيراً الى درجة انه لم يتمكن من دفع رواتب جنوده الكرج فوجد نفسه مضطراً الى اخذ قرض من التجار .

القنصلية الانكليزية في بغداد

وقد خدمت القنصلية الانكليزية والفرنسية التجارة البغدادية وشكلت القنصلية (١) الانكليزية تحت ادارة Cl . Rich بصورة فوق العادة لائقة

(1) J . S . Buckinghan . Trav . I . C . O . 390

بتمثيل الشركة الهندية وشعبها . كان للقنصلية مورد مهم وقد اتخذت القنصلية مقراً مشكلا من ابنيـــة كثيرة وجيدة يحيط بها (حوشان) . وفي البناية كثير من الغرف المشرفة على دجلة والدهاليز والشرفات ذات الجدارين للنوم تحت السماء وسراديب و (كلارات) متعددة تستعمل اثنـــاء الحر وذوائر واصطبلات وكثير من الخدم والمرافقين . ويوجد جراح واحـــد وكاتب وعدد من المترجمين وبعض الانكشارية والسائسين وجمع من الخدم على الطراز الهندي الذين يختص كل منهم بوظيفة خاصة .

واولئك المستخدمون من اقوام مختلفة وألسنة متباينة كالتركي والعربي والكرجي والفارسي والهندي وقد ألفوا فوجاً من الخيالة (السباهيين) للمحافظة وتذهب صفوفهم في موسيقى عسكرية مرتدية الملابس العسكرية لتحية العلم أو الى الخفر .

وهناك يخت كبير جميل تحت قيادة (*Serag*) هندي مع ملاحيه الهنود يقف مستعداً للحركة دائماً . وتوجد في الاصطبل اجمل الجياد . وخلاصة القول كانت القنصلية معدة لكل شيء يعجب به الشرقيون .

وكان المستر *Rich* الشخص الذي له اكثر النفوذ في الولاية بعد الوالي . ويعتبر رأيه في قصر الوالي اقوى من رأي ديوانه .

وبالطبع كان من واجب القنصلية المحافظة على الامتيازات المفيدة التي حصلت عليها بنتيجة نمو القوة الاوربية المسيحية بواسطة المراسيم الخارجية ، تلك الامتيازات التي كانت توطىء بالاقدام في بقيـــة الاماكن الشرقية . فكانت هذه المراسيم تحـــد من الحريات الشخصية للمشاهدين مما يؤثر على مشاهدتهم .

فاذا دخل السائح الانكليزي المدينة ماشياً فانه يسبب سقوط اعتبار قومه . لذا كان الدخول إلى المدينة في هذه الآونة يجب ان يكون على الفرس كما كتب الكولونيل *Keppel* (١) . وكان جاويش القنصلية مع ضابطه يستقبلان السواح الانكليز من ابواب المدينة ويحمل الجاويش بيده عصاً فضية ذات رأس كروي من الذهب (كالرجال الغادين الى البلاط الذين يسيرون في الأمام في الصور الموجودة في خرائب برسيبوليس) ويرافقان السواح في ذهابهم الى القنصلية . وعندما يترك السواح القنصلية تجري نفس المراسيم ، لكي لا تصاب السمعة الانكليزية بضرر وكما يروي *Keppel* ان السائح الذي يرغب في تدقيق المدينة يضطر على البقاء في البيت مسجوناً كأسير لما يترتب على خروجه من مراسيم معقدة .

ومع ان القنصلية الفرنسية كانت اصغر من الانكليزية فقد كان على رأسها كقنصل عام المسيو *Vigoroux* الرجل ذو الشهرة الكبيرة . وله مرافقون وخدم ومترجون . وتحت حمايته دير مسيحي ، فيه راهبان من طريقة *Carmelit* . وكان هذان يجتهدان في توحيد البقايا القليلة من طرق المسيحيين الشرقية المختلفة لكنيسة السريان والكلدان الموجودة هناك مع الكنيسة الكاثوليكية ولكن على ما يذكر *Buckingham* كان هذا السعي يؤدي الى سوء التفاهم والمجادلات . وكان منتظراً في وقت *Keppel* في سنة ١٨٢٤ ان ترتقي المطرانية الكاثوليكية الفرنسية الموجودة هناك قبل الثورة الى قنصلية .

وكما يكتب (بوكنهام) ان وسائط الراحة الممتازة الموجودة في القنصلية

(1) G. Keppel, *Personal narrative of trav*. I. P. 141, 158 etc...

الانكليزية تكفي لجعل أشد الحرارة في اقليم بغداد امراً يمكن تحمله [١] .

بغداد كما وصفها KER PORTER

وقد مر في بغداد الرسام الشهير [٢] (Ker Porter) بعد سنتين أي في تشرين الأول في سنة ١٨١٨ اثناء عودته الى وطنه بعد دراسته المثمرة في ايران ونزل فيها ضيفاً على القنصلية الانكليزية ويجب أن لا نعجب من الرسام المفكر لأنه حسب نفسه في بغداد في عصر هارون الرشيد كما هو مصور في روايات ألف ليلة وليلة بعد ان زار ايران الناهضة . وبالطبع ان المعلومات التي ذكرها عن بغداد كانت تختلف تماماً عن احوال ايران . وتكون هذه المعلومات مهمة لصدورها عن شخص متخصص .

فحسب ما يذكره (كر پوتر) ان أهالي بغداد يختلفون تماماً عن الايرانيين . حيث يرتدي الايرانيون الملابس البسيطة الضيقة ويتمنطقون بخناجر في احزمتهم ويضعون (الكلاو) على رؤوسهم . في حين يرتدي البغداديون الملابس الفضفاضة والطويلة ويضعون العمائم على رؤوسهم المشدودة بفخفخة كما يلفون اعناقهم وصدورهم بالشالات الثمينة ، وتوجد الخناجر المزينة بالنقوش الكثيرة في أحزمتهم وتنتشر هذه الأزياء في كافة اسواق بغداد بالعمائم ذات الألوان والأشكال المختلفة التي تلمع بالفخفخة والغرور .

ويختلط الفراء و (اليلكات) الحريرية والزبونات والدشاديش المصنوعة من الساتان والأقمشة الحمراء والزرقاء والصفراء بعضها ببعض فيبدو الايراني أمام هذه المظاهر الزاهية مقتصداً بالرغم من عنايته بتنظيم لحيته السوداء .

---

(1) *Buckingham . Trav . P . 392*

(2) *Ker Porter . Trav . Lond . 4 . Vol . II . P . 243 - 281*

ومقابل ذلك فان البدن ، الذهن الايراني نشيط وفيه بلاغة ، في حين ان الأتراك هادئون يجلسون في جوانب الأسواق وفي المقاهي المتعددة كمشترين دون ان يسئموا من شراذم الكلاب التائهة التي تعيش في الازقة ويقضون شطراً كبيراً من حياتهم في بطالة تامة إلا ان فقر سكان المدينة وخلوها من الناس بالرغم من استحكاماتها ووجود اسواقها التجارية يعود قبل كل شيء الى ان الأراضي المحيطة بها بادية . وفي ارتفاعات الساحل في الجانب الآخر وعلى طرفي دجلة توجد مقابر واسعة يرتفع من وسطها بشكل خرابة ، مقبرة زبيدة التي كانت في حينها صاحبة المدينة ويتسع مجال الرؤية من ذروة هذه البناية المخروطية (١) المثمنة والمبنية بشكل خالي من الذوق في الخلاء المحزن . وافق البادية الأسمر يمتد حتى برج (عكركوف) الكائن في الشمال . وكان هذا البرج يرتفع عن مستوى الساحة كسن للخربة المنفردة .

وكانت المدينة ذات لون رصاصي غامق كائنة على ساحلي دجلة ، بدورها الخالية من الشبابيك وبأزقتها الضيقة وسطوحها غير المنتظمة والمسطحة غالباً وبشرفاتها في السطوح . ووراء كل ذلك كانت ترتفع هنا وهناك قبة لجامع أو منارة أو برج لسور المدينة العالي أو خربة مما كان يزيد من منظرها الحزين .

وفي داخل المدينة كان القسم الأكبر من الأماكن مهدماً وفارغاً ومزيناً باخضرار النباتات البهيج وترتفع خلال ذلك النباتات الأصلية للأقاليم

(1) *Ker Porter - Zobeides Tomb - Tab 67*
Keppel - Personal Narrative of Travels in Babylon, Assyria etc..
Lond. 3 Edit. 8, 1827 T. I. P. 158
B. Fraser, Trav. I. P. 317
Southgate - Narrative etc ... 1840, Vol. II. P. 174

الحارة وفوق كل هذه تعلو تيجان النخيل وكما يقول (كربورتر) فأن المدينة تضفي على المشاهدين احساساً غريباً . وحسب هذا الاحساس فقد كانت هذه المناظر آخر بسمات المدينة التي كانت معرضة الى اللعنة منذ زمن طويل .

داود باشا ـ والي بغداد

كان (داود باشا) (١) عبداً من تفليس وهو مسيحي ، بيع لفوج الحرس في بغداد وبعد ان أسلم ارتقى بارادته واستعداده في سنة ١٨١٧ الى وزارة ذات الثلاثة ريشات وكان على رأس الحكومة في بغداد في زمان (كربورتر) . وقد قلب داود باشا أدارة الولاية التي كانت أشبه بالمستنقع المملوء بالأمراض الى بحر متموج ممتلىء بالحركة والحرس والنشاط .

وكأن العبارة المشهورة لنادرشاه تنطبق عليه

فقد حدث عندما أرسل السفير التركي من جانب السلطان الى فاتح ايران (نادر شاه) ، أن أراد السفير تملق الشاه . فسلم عليه قائلا : « اني سعيد جداً بأن أكون قد تعرفت في حياتي على أكبر شخصيتين في العالم ! » (يقصد الشاه والسلطان) . فأجاب الشاه بما يلي : « ان اعظمنا هو أحمد باشا ، والي بغداد ، لأنه كان يتمرد على كلينا ! » .

وقد كان داود باشا من قبل رجلا متواضعاً يلبي أوامر الباب العالي غير انه بعد مدة قصيرة سلك مسلك أحمد شا (الذي دافع (٢) عن بغداد في سنة ١٧٣٢ بجرأة ضد نادرشاه) ومسلك زميله الخديوي في عصره بعصر (محمد علي) ، حيث أراد ان يكون هو أيضاً خديوي بغداد بصفة خاصة

(1) *Welstedt - Travels to the city of the Caliphs . I . P . 249 etc...*
(2) *Niebuhr - Reisebesch . II . S . 317*

والعراق العربي بصفة عامة وقد كان كذلك بالفعل .

كانت بغداد اغنى ولاية بعد مصر، لكن حظها لم يساعدها كما ساعد مصر.

ان Keppel الذي يعتبر مشاهدا دقيق الملاحظة اشتغل في سنة ١٨٢٤ بالآثار القديمة في جوار بابل لم يكشف في مؤلفاته عن احوال بغداد السياسية بقدر ما كشف عن آثارها ، اما Stoqueler فلم يصل اليها لأنه خشى الطاعون السائد في بغداد خلال ربيع سنة ١٨٣١ فبقي في شـط العرب بالبصرة. ولـكن القنصل الانكليزي الكولونيل (تايلر) ، الذي خلف (ريج المتوفي بالكوليرا في سنة ١٨٢١) ترك القنصلية في بغداد وتوجه الى البصرة .

ويذكر لنا (شتوكلر) بأن داود باشا كان يحكم من سنة ١٨١٧ بكفاءة ، فنظم جيشاً مهماً بمساعدة الضباط الانكليز والفرنسيين كما جرب الملاحة في الفرات بواسطة السفن التجارية ووقف موقفاً معارضاً للباب العالي (١) .

وقد تردى الوضع المالي للباب العالي سنة ١٨٢٧ بنتيجة الحرب التركية ـ الروسية ، فطلب الباب العالي من خزينة داود باشا ، التي كانت غنية بسبب نمو تجارة بغداد ، سبعة آلاف كيس (عملة) ، لـكن الوالي أراد ان يقنع الباب العالي بمبالغ صغيرة فارسل من استانبول للوالي (قابوجي باشي ـــ رئيس بوابين) وهو يحمل مطاليب جديدة الا أن الوالي خنقه في بيته

وعلى اثر ذلك ارسل (علي باشا) الى بغداد مع الجند لتأديب داود باشا وقد انضم إلى هذا الجيش الطاعون والثورات التي ظهرت في بغداد وبنتيجة ذلك تمكن (داود باشا) ان يخلص رأسه فقط بعد دفعة الوشوة . وقد تلاءت

(1) J. H. Sotqueler Esq. Fifteen Months pilgrimage in Khuzistan æ Persia, Lond. 1832, 8. I. P. 44

مصالح الروس مع مصالحه وبنتيجة النصر الذي حصل الروس عليه في (اركسبس) تحت قيادة (پاسكويج) ضعف نفوذ السلطان بحيث اصبح في وسع (داود باشا) ان ينفذ مشروعه وان ينفصل عن الباب العالي ويعلن استقلاله عنه .

بغداد كما وصفها B . FRASER

ان B . Fraser الذي اصبح بسبب اقامته الطويلة في ايران كشخص محلي والذي نعرفه منذ زمن كشاهد دقيق للشرق ، زار بغداد بعد مدة وجيزة من زمن الطاعون وسقوط بغداد ، اثناء حكم (علي باشا) الذي خلف داود باشا . وعن هذا السائح فقط نتوصل الى معرفة النكبات الشديدة التي اصابت المدينة . . .

جاء (١) Fraser من الشمال الغربي عن طريق الموصل وشاهد لأول مرة اثناء طلوع الشمس امام دجلة ، في سهل واسع ، منائر بغداد تلوح من بعيد . وكانت الارض كما تظهر من النوع المنبت إلا ان تأسيسات المياه لم تكن موجودة . لذا اصبحت جنة بابل المشهورة في وقتها بادية في الوقت الحاضر تنبت فيها نباتات الصودا المالحة كغذاء الجمال . وقد تعرض السائح المذكور الى خطر النهب قرب العاصمة من قبل العرب الذين كانوا في حالة الثورة مع الوالي إلا انه مر من بينهم بسلام ووصل الى المقر الانكليزي المريح العائد للكولونيل (Taylor) الذي يحب الضيوف دائماً ويرحب بهم ويقدر الناس الذين تعرضوا لهذه المتاعب ، شعور الراحة والنظافة والرفاه ،

1 - J . Baillie Fraser - Travels in Koordistan , Mesopotamia etc.... Lond . 1840 . Vol . I . P . 207

الذي شعر به السائح بعد حرمانه الطويل منها . وكان منظر دجلة الكلاسيكي القديم يبدو من شباك غرفته بزوارقه وأكلاكه وجسره المشدود على العوامات حيث يمر الناس عليه بصورة مستمرة جميلا ، وتعكس ولو بقلة القباب والأبنية الكائنة على ساحل دجلة شرف سلوقية القديمة ومجد طاق كسرى والمدائن ومدينة الخلفاء .

وتؤثر بغداد رغم سقوطها تأثيراً حسناً على (فرازەر) الذي اتى من ايران ، حيث كانت آنذاك مخربة في كافة اماكنها . وكانت طوابيق السور العالي للمدينة من النوع المحروق وكلها تقريباً ذات لون اصفر فاتح (١) ، لا يظهر جميلا للعين . ولكن صناعة بابل للآن تظهر في عمل الطوابيق . اما الابراج القوية مع بطاريات المدفعية فلا توجد في مدن ايران على اسوارها الرصاصية الفقيرة . وبالرغم من ان اسوار بغداد لم تكن كاملة وابوابها مهدمة إلا ان وضعها كان احسن من اسوار المدن الايرانية . اما ازقة المدينة فضيقة وعرضها على الاكثر في القسم الأسفل تسعة أو عشرة اقدام (٢) . اما القسم الأعلى فقد كانت الأبنية فيه تكاد تتصل ببعضها وتشكل بذلك طاقاً في اعلاه وليس للابنية اية شبابيك . والازقة غير مفروشة بالاحجار وممتلئة بالطين .

ولكن كما يذكر *Fraser* ان بغداد لم تكن مع ذلك خربة كالمدن الايرانية . فليست بيوت بغداد كمثيلتها في ايران تشبه المغارات أو الكهوف . وللبيوت في بغداد ابواب حديدية جميلة واكثرها لطيفة جداً من الداخل

(1) H. Southgate- *Narratve of a tour through Armenia, Kurdistan, Persia etc ... Lond . 8 . Vol . II . P . 174*

(2) Welstedt - *Trav . to the city of the Caliphs I . P . 265*

كما فيها الشرفات والاطواق الكثيرة المطلة على الشارع حيث يجلس هناك الناس وهم يدخنون وتشبه الاماكن المظللة باوراق الاشجار وغصون النخل الاماكن الجميلة في الهند (مدراس) وهذا لا يتوفر في اية مدينة ايرانية .

ان دجلة يستهوي الانسان دائماً ويظهر جسره المشيد على العوامات بكامله في الليـــالي ، التي تتلألأ فيها النجوم . وهو يعج بالحركة اثناء النهار . فتعبر من فوقه باستمرار القوافل الكبيرة والصغيرة التي تذهب من ايران الى عربستان والخيول والبغال والجمال والجمالون والخيالون الذين يذهبون من دجلة الى الفرات فسوريا أو بابل أو الخليج الفارسي .

وسواحل المدينة تجلب الانتباه ايضاً . وتشكل الابنية المختلفة وخضرة الحدائق في بعض الاحيان مناظر تحلو رؤيتها وعرض النهر ليس بواسع جداً ، وهو يساعد على رؤية الساحلين بالعين المجردة بسهولة .

والاسواق مهدمـــة كثيراً ومبنية بطراز بسيط ومملوءة بشكل رديء وادارتها غير حسنة ولـكن بسبب الازياء المختلفة كانت تبدو مبهجة جداً بالنسبة للاسواق الايرانية .

فالميادين العامة تعج بالمقاهي الكثيرة حيث يجلس فيها كثير من الناس وهم يدخنون ويشربون القهوة ويلعبون مختلف الالعاب ولا سيما الشطرنج . وكان الرواة خصوصاً يسلون الاهالي ويروون اطرف الحكايات وبهذا يمكن القول بأن الحياة موجودة في المدينة آنذاك وان لم تبعث على الغبطة . وكانت تلك الميادين كساحات للاستراحة ومن جهـــة اخرى ساحات لتنفيذ احكام الاعدام الرسمية . وهي ايضاً اسواق للخيل . وعدى ذلك لها علاقـــة بالحياة العامة .

ولكن عندما زار fraser هذه المدينة التي كانت قبل مدة وجيزة مقراً لداود باشا لم يبق من عصرها اللامع الشيء الكثير لأن انحطاطها الكبير بدء مع الطاعون المخيف في سنة ١٨٣٠ و١٨٣١ واستمر هـذا الانحطاط منذ ذالك الوقت فلم تر المدينة فرصة للراحة وتعاقبت المصائب الكبيرة عليها كالطاعون والفيضان والجوع ، الواحدة تلو الاخرى باشكال مختلفة وكان ذلك يؤدي الى محو السكان أو يطردهم في الاراضي المحيطة بالمدينة . فانهدم السور مع كثير من البيوت في اكثر اقسام المدينـــة . ويضاف الى تلك المصائب سقوط داود باشا ومحو اتباعه والمظالم الجديدة من اعدائهم الذين ترأسهم (علي باشا) مما يزيد انحطاط هذه المدينة .

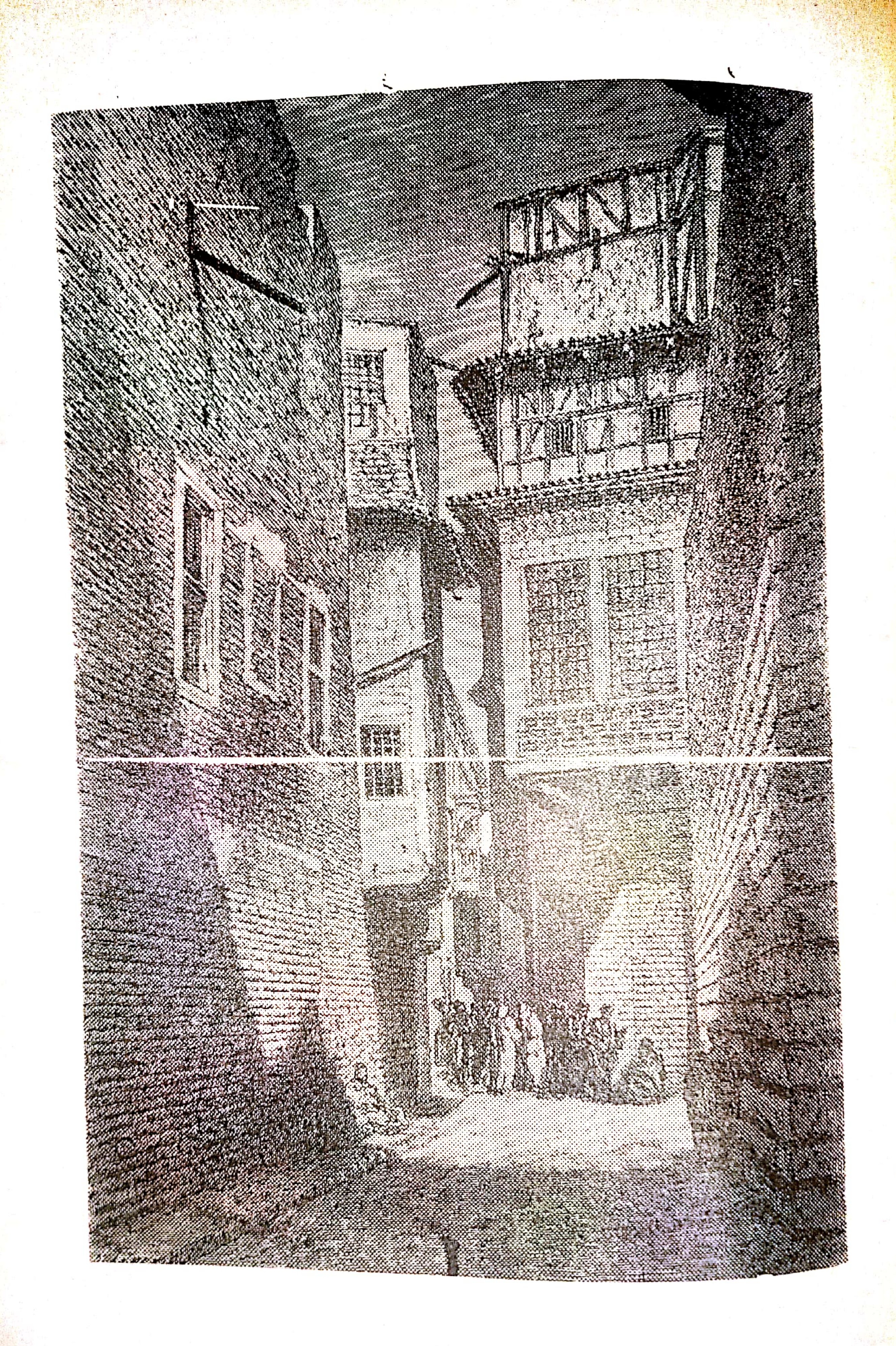
وقد قدر سكان بغداد قبل الطاعون على الاقل بـ (١٥٠) ألف نسمة . فهبط هذا العدد في وقت Frascr الى (٨٠) ألف . وحسبما يدعى غيرهم انه هبط الى نصف هذا العدد .

وفي اواخر سنة (١٨٣٠) بدأت كلمة اعـــداء (داود باشا) تسمع في استانبول فقرروا اسقاطه ولـكن كان بامكانه ان يقاوم الباب العالي لوجود جيش محارب مدرب تحت قيادته لولا ظهور الطاعون في بغداد (١) الذي لعب دوره المهم في السياسة .

الطاعون والفيضان في بغداد

في تشرين الأول ١٨٣٠ بدأت أول اصابات الطاعون في محـلة اليهود ببغداد . وبينما سبب الطاعون خراب سواحل البحر الاسود وايران ، فقد كتموا هذه الوقائع في بغداد كالعادة .

(1) J. Baillie Fraser - Trav. P. 233



احد أزقة بغـداد قبل ١٠٠ عام

وحسبما يذكر Welstedt (١) الذي كان في هذه الاثناء ببغداد ، ان الطاعون بدأ يقترب كالسيل البركاني وينتقل من قرية الى اخرى نحو بغداد بصورة مستمرة . ولم تنجح كافة الجهود التي بذلها القنصل الانكليزي لاقناع الوالي بأخذ التدابير الاحتياطية لاعلان الحجر الصحي (كرنتينه) لأن ذلك الاجراء كما يدعى (الملالي) مخالف لاحكام القرآن (المترجم - لقد تمـــدى Welstedt بذلك حيث ان الحديث الشريف يذكر اذا سمعتم بالطاعون بارض فلا تدخلوها واذا وقع بارض وانتم بها فلا تخرجوا منها - صحيح البخاري وصحيح مسلم - مفتاح كنوز السنة صفحة ٤٦٤)

وقد بدأ الطاعون على اشده ببغداد في آذار من سنة ١٨٣١ وادهش سكان المدينة كافتها . وفي اواخر آذار ايضاً اغلق الكولونيل Taylor القنصلية الانكليزية والتجأ الجميع الى بيوتهم بعد اعداد التموين اللازم . وقد كانوا يسحبون الحاجات الضرورية من الخارج بعد غمرها بالماء بواسطة السلال الى اعلى البيوت فيمسكون كافة الأشياء بالملاقط ويدخنونها قبل الاستعمال ، الا ان القطط كثير ما كانت تنقل الطاعون بعد ان تقفز من سطح الى آخر ، وهم في الوقت نفسه لا يستطيعون منع الخدم من زيارة اقاربهم ومساعدتهم للاشخاص المشرفين على الموت . وقد توفى في القنصلية ايضاً في (١٠) مارت أول (سباهي) من المحافظين وتمرض اربعة منهم .

وقد سبب الطاعون في القسم الشرقي من المدينة حيث توجد القصور العائدة للوالي والاشراف (سبعة آلاف) وفية ولم يكن عدد الوفيات بأقل من ذلك في القسم الغربي من المدينة .

وبدأ في الوقت نفسه فيضان دجلة ايضاً . وقد هدم النهر بفيضانه كافة

1 - Welstedt - Trav . to the city of Caliphs , London 1840 , Vol. I , P . 280

السدود الكائنة في القسم الاعلى من المدينة وانغمرت كافة الاماكن الواطئة بالمياه. فدخلت الى المدينة ونفذت الى (٢٠٠٠) بيت تقريباً من بيوت الفقراء، وهدمتها. وبالاضافة الى هذه المشاهد المدهشة (١) والمخيفة للمرض والفيضان كان الأشقياء الذين جاءوا من كل الاطراف يتجولون حول مدينة بغداد وينهبون الهاربين المساكين ويقتلونهم وبعملهم ذلك يغلقون بوجههم كل طرق الهزيمة والخلاص وكان (اليخت) والزوارق التي جاءت بالكولونيل (تايلر) من البصرة راسية بجانب قصره ولذلك كان بوسعه الهرب مع حاشيته بهذه الواسطة. وقد دعى القنصل المبشر المستر (*Groves*) وعائلته ليلتجأوا إلى بيت كائن بالقرب من مدينة البصرة وبهذا اتيحت لهم فرصة لأن يهربوا من الطاعون المدهش دون أن يكون لهم أي تماس معه ولكن المستر (*Groves*) بقي مخلصاً لوظيفته ولم يترك التبشير بالمسيحية الذي كان يقوم به في ذلك الوقت (١٢) طالباً تقريباً ومعلم أرمني واحد وقد بقي المبشر في وظيفته وبدأ يداوم على كتابة مذكراته (٢) عن هذه الفترة المخيفة ونحن نقتبس الوقائع التالية من مذكراته المهمة لتاريخ بغـــداد. وقد بقي *Welstedt* الجسور ايضاً في بغداد يمشي حواليها كعادته سابقاً.

وهرب من الاهالي المحليين كل من استطاع سبيلا الى ذلك وقد بقي المتوكلون على الاقدار فقط في بيوتهم وحبسوا انفسهم فيها والتحق بهم النصاري وقد خلت المحاكم ولم تنعقد فطفق الاشرار يحكمون المدينة تدريجياً

(١) الموصوفة في كتاب :

Welstedt - Trav. I. C. P. 282 - 302

2 - *Antony N. Groves - Missionery Journal of a residence at Bagdad 1830 and 1831, London 1832, 8.*

فوجدوا الشوارع خالية وبدأوا يدخلون البيوت بيتاً فبيتاً ويقتلون أصحابها وينهبونها بلا مقاومة . وفي ذلك الوقت كان يموت يومياً بين (١٠٠٠) و (١٨٠٠) شخص وفي ١٦ و ٢١ نيسان ازدادت نسبة الوفياة فبلغت (٢٠٠٠) نسمة يومياً فاقفرت الشوارع تماماً ودخلت في (٢١) من الشهر امواه دجلة الى القنصلية وسراديبها . وفقد كثير من الاطفال آبائهم وأمسوا يسيرون في الشوارع تائهين . وكان مئات الاطفال وهم في دور الرضاعة ، متروكين في الطرقات وقد شاهد (*Groves*) في بعض الطرق ثمانية أو عشرة اطفال في دور الرضاعة في مكان واحد وكانوا ينقلون المرض للنساء الشفيقات اللواتي كن يرحمنهم فيأخذنهم معهن .

وقد بلغ عدد المرضى الذين سقطوا وماتوا في المدينة الى يوم (٢٤) من الشهر (٣٠٫٠٠٠) ولم يكن ينجح واحد من كل عشرين مصاباً بهذا المرض .

وقد هدمت المياه في (٢٥) نيسان جدران القنصلية ايضاً ولم يبق حياً في هذه الاثناء من الخدم الأخادم واحد فقط . ولم تكن الاكفان متيسرة لتكفين الموتى بها .

فمات في ٢٦ نيسان في السراي (٥٠٠٠) شخص فقط . وحسبما يذكر (*Groves*) فأن عدد الاشخاص الذين قتلهم الطاعون في هذا اليوم لم يكن بأقل من (٤٠٠٠) شخص . وبقي في المدينة من سكانها القدماء (٦٠) ألف نسمة فقط . وبعد مدة عندما حضر *Southgate* في سنة ١٨٣٧ الى بغداد قدر نفوس المدينة بأربعين ألف شخص (١) .

وقد اضعف ماء دجلة سور المدينة ايضاً فبدأ ينهار في أماكن متعددة

---

(1) H . Southgate , *Narrative I . C . Vol . II . Ch . 16 . P . 178*

وانقلبت محلة اليهود الى بحر غرق فيه (٢٠٠) يهودي في آن واحد وفي السابع والعشرين من الشهر غمرت المياه القسم السفلى من المدينة بكامله وانهدمت (٧٠٠٠) دار وبقي كثير من الناس تحتها وغرق بين الميـــاه ايضاً تقريباً (١٥٠٠٠) شخص كان بعضهم في صحة جيدة والآخر مصاب بالطاعون وماتوا جميعاً . الا ان هذه البلية كانت صغيرة بالنسبة الى المصيبة الكبرى الطاعون. وبالرغم من ذلك فقد اخذت المستنقعات تسبب المصائب الا كثيرة وانضم الى هذا البلاء الجوع الكبير فبدأ الناس الذين كانوا بحالة جيدة قبلا يستجدون لقمة الخبز .

واصبح الوالي الذي كان يسكن في السراي الفارغ في خطر من البقاء تحت الجدران التي كانت تتهدم بين حين وآخر فكان ينوي الهرب بالزورق ولكن لم يبق لديه جدافون . ولم يبق من حرسه الخاص المؤلف من مئة كرجي غير أربعة اشخاص فقط . وقد كانوا يرمون الأموات في المياه من الشبابيك ولم يفكر أحد بدفنهم . وحسبما يكتب (Groves) ان الوالي لم يكن محبوباً في أي وقت ما لكن أحداً لم يعد يخافه الآن لأنه فقد زمام الحكم كلية .

ولم يصب الطاعون المبشر (Groves) ولكن مات من المرض خمسة من المدرسين في مدرسة المبشرين ولم يبق في القنصلية على قيد الحياة من الثمانية عشر (سباهياً) وخادماً سوى اثنين .

وقد انتقل الطاعون الى القافلة المسافرة من بغداد الى الشام قبل ان تتحرك وصادفت القافلة الفيضان فاضطرت للوقوف في مكان مرتفع محاط بالمياه مدة ثلاثة اسابيع . واصبح ذلك المكان نتيجة ذلك مقبرة للاموات .

وفي الوقت نفسه اصاب الطاعون نصف القافلة التي تحركت الى (همدان) والتي كانت مؤلفة من (٢٠٠٠) ايراني . فماتوا في الطريق وقد دفنوا في كل مرحلة بين خمسين وستين جثة . ونهب الأشقياء هؤلاء المساكين الذين هم في حالة الفزع فسقط كثير منهم بلا حياة من ظهور خيولهم

اما الذين تشبثوا بالهرب متأخراً من المدينة فقد صادفتهم المياه التي كانت تجري من كل الأطراف فاضطروا للالتجاء الى الاماكن المرتفعة . إلا انهم ماتوا من الجوع والبرد بشكل مزر بسبب فقدان الوقود . اما بقية الهاربين فقد نهبهم الأشقياء بلا رحمة .

وخيم على بغداد في هذه الفترة صمت القبور فلم يرتفع صوت المؤذن في المنائر . واختفت كل مراسيم الحزن والجنائز ولم يبق من يترحم على الأموات . وبدأت المياه أخيراً تتناقص في أوائل ايار (١) واخذوا من جديد يجلبون الرز من القسم الأيمن من المدينة الى القسم الايسر لبيعه واصبح في الامكان صنع الحساء (شوربة) فوق خشب الوقود لأن جميع محتكري الخشب الذين كانت كل تجارة الخشب بأيديهم قد ماتوا .

ومن (٤) ايار مع بداية الطقس الجيد بدأ عدد الأموات يقل وعدد الناس الذين يشفون من المرض يكثر . وعلت اصوات السقائين من جديد وارتفعت اصوات المؤذنين من المنائر وبالرغم من ذلك فقد دخل الطاعون في السابع من شهر مايس إلى بيت المبشر فمات زوجته وأولاده والمدرسون . واحد هذين المدرسين كان قد شاهد اربعين شخصاً من أصل (٤٤) من اقاربه يموت أمام ناظريه .

1 - J . Baillie Fraser - Trav . I . C . P . 248

وفي محلة الأرمن بقي من (١٣) بيت (٢٧) بيتاً ضلت افراد عائلتها على قيد الحياة وقد انقرضت احدى محلات بغداد تماماً . ودفن سيد ابراهيم الذي كان الوحيد من خدم الكولونيل (تايلر) حيث بقي في الحياة(١٣) شخصاً من افراد عائلته .

وكان عدد الوفيات في غير اقسام الولاية مرتفعاً ايضاً بهـذا الشكل وقد بقي من سكان مدينة الحلة الذين بلغ عددهم (١٠ر٠٠٠) نسمة عدد قليل جداً . ومات من سكان بغداد ثلثاها ويخمن عدد الاموات (بمئة ألف) شخص . وحسبما يكتب *Welstedt* (١) ان نفوس بغداد هبطت الى (عشرين ألف) مع الهاربين . وقد امتدت هذه البلية الى ايران بنفس الشدة فخسرت كرمنشاه وهمدان وكردستان القسم الكبير من نفوسها وقد ترك نفس المرض مدن مازندران ، استراباد ، دشت ، لاحايان وعمائرها خاليـة وبقي في مدينة كيلان باسرها خمس سكانها على قيد الحياة . (حسبما يكتب *Ammian Marcell XXIII . 6.* ان طاعوناً مخيفاً كهذا خرب في وقتها مدينة (سلوقية) وبدء انتشاره هناك من مقابر الاموات ثم توسع الى كل الامبراطورية الرومانية حتى غاليا) .

وقد ترك الطاعون بغداد (٢) باشتداد حرارة الصيف ومنذ (٢٦) مايس لم تسجل اصابة طاعون في المدينة . وعندما ترك المبشر بيته الحـالي كان منظر المدينة الميتة مروعاً تماماً وكانت البيوت لا تزال تنهدم وقد مات التجار واصحاب الحرف جميعاً . غير ان الجوع دام حتى بعد انتهاء الطاعون وجفاف الاراضي . وكان البؤس قد خيم على كل القرى المجاورة .

1 - *Welstedt - I . C . I . P 295*

2 - *J . B . Fraser - Trav . I . C . I . P. 252*

وفي البصرة بدأت المصيبة تعمل على تخريبها ايضاً بصورة أشد وكانت الأدوية والتدابير ضد الامراض التي تصيب الجسم ضعيفة بل مفقودة .

سقوط داود باشا

ولم تكن وقائع الاحوال السياسية بأقل تأثيراً على هذه الادارة المستبدة (١) لأن قوة (داود باشا) العسكرية كانت منهارة كسائر القوات الاخرى ، ولم يكن الكولونيل (تايلر) الذي يعتمد عليه (داود باشا) موجوداً الى جانبه ليساعده . وقد مات آخر جندي في جيشه المدرب على الطراز الاوربي بالطاعون . بالاضافة الى ان استحكاماته كانت مهدمة فاضطر للهرب كي لا يبقى تحت جدران قصره التي مالت بدورها للانهدام ، ولا سيما وان السلطات العليا لم تعطف على الوالي الثائر العنيد بثورته هذه .

فولى الباب العالي منافسه (علي باشا) والي حلب ولاية بغداد فطلب علي باشا من (قاسم) باشا موصل ومن (صفوك) شيخ عرب (الجرباء) المعونة لضبط مدينة بغداد . وبقي الجيش التركي يراقب على الحدود الشمالية من الولاية مدة طويلة . فحل الوقت المناسب للهجوم على العدو ومحاصرة بغداد . فسقطت المدينة بعد بضعة اشهر بيد علي باشا بنتيجة الخيانة بالرغم من الدفاع المستميت الذي ابداه بعض (الكولمنيه) ، الذين بقوا في خدمة داود باشا . وقد نجى (داود باشا) برأسه لمدة بعد أن قدم خزائنه (المترجم - كان داود باشا على قيد الحياة اثناء تأليف هذا الكتاب ولم يقتل بعد ذلك) . وا. تحصل العفو بواسطة الرشوة . وقد ابدل السلطان عقوبة الاعدام التى كانت جزاء الوالي بالاقامة في البسفور كشخص عادي وهي نوع من النفي

1 - J. B. Fraser - Trav. I. C. I. P. 255

أو المراقبة البسيطة ولا يزال داود باشا يعيش في استانبول حتى الآن (أي سنة ١٨٣٨) وعلاقته مع السلطان محمود حسنة[1].

وقد زاد الوالي الجديد الاحوال سوءاً فضيق على التجارة في مدينة بغداد التي بدأت تتقدم من جديد بواسطة رسوم الكمارك الباهضة. فسلم الفلاحون المساكين والفقراء امرهم الى اطماع الموظفين، فكان البدو يتجولون في كل اطراف عاصمة الولاية. ولم تكن الواردات متوفرة بعد، فشاع الخوف وضاعت الثقة والاستقرار وازدادت الشكاوى في كافة انحاء المدينة.

وكان الطاعون الذي تلاشى تدريجياً لا يزال يسبب بعض الوفيات لمدة طويلة. لأن *Welstedt* الذي ترك بغداد وسافر الى الشام يذكر عند رجوعه اليها ان الطاعون لم يزل موجوداً في المدينة ويسبب (٥٠٠) وفاة يومياً.

وقد وجد *Fraser* المدينة في سنة ١٧٣٢ لا تزال مخربة. فكانت تنفرد هنا وهناك فوق هذه الخرائب بيوت تلوح كالاشباح وقد تحولت أماكن كثيرة الى حفر بنتيجة المياه اما البيوت التي بقيت قائمة فقد كانت جميعها مصدعة. ولم يكن لثلثي سكان القسم الشرقي من المدينة بيوت قابلة للسكنى. وكان على الوالي الجديد ان يعيد بناء قصره. ولم تعد البساتين والبيوت الفخمة والواقعة على ساحل دجلة الغربي والعائدة للاغنياء قائمة بل ان الناظر الى مختلف الأطراف يرى امامه بادية تمتد الى الافق خالية الا من خيام لاعراب انتشروا لرعي قطعانهم.

---

1 - H. Southgate, Narrative I. C. Vol. II. P. 189

الخلافات العشائرية

ولأكمال اللوحة الحزينة التي تمثل اهم مقر كائن في اقصى مكان في الشرق (١) من الامبراطورية التي تحكمها الادارة المطلقة علينا ان نبحث علاقتها مع اقرب جاراتها أي العشائر .

قبلت قبيلة الجرباء ان تسكن في قسم العراق من الولاية في الطرف الشمالي . والقصد من ذلك ان يطردوا بواسطتها بقية البدو المزعجين والناهبين من العشائر الأخرى .

وقد ساعد هؤلاء العرب من قبيلة الجرباء (علي باشا) اثناء سفره الى بغداد . وبعد ان حقق علي باشا غرضه ، طلبوا منه مكافأة على ذلك ، لكن الوالي لم يكن يفكر في منحهم شيئاً وعلى اثر هذا انسحب هؤلاء البدو الى شمالي العراق ونهبوا كل القوافل هناك . وعادوا بعدئذ الى بغداد من جديد وحاصروا المدينة لمدة ثلاثة اشهر فاغلقوا كل منافذ المدينة ولم يكن لعلي باشا قوة كافية لصدهم . ولسبب ما حصل بينهم اضطروا على ترك الحصار والعودة الى بلادهم ولكن خطر عودتهم مرة ثانية لم يذهب تماما .

وقد طلب في هذه المرة (علي باشا) لتخوفه البالغ المعونة من عرب (عنزه) الذين يسكنون في السواحل الغربية على الفرات . وقد سلك الوالي طرقاً مختلفة لتأمين ايجاد قوة ضد الجربين . فأخذ في الوقت نفسه بالحكمة القائلة (فرق تسد) فعين شاباً من الجرباء اسمه (شلاوش) شيخاً لقبيلته الا ان اكثر افراد تلك القبيلة بقوا مخلصين لشيخهم القديم (صفوك) .

ووصلت قبيلة (عنزه) الطامعة في مراعي الجربه الغنية لمعاونة الوالي

1 - J . B . Fraser - Trav . I . C . P . 270 - 275

بقوة قدرها (٣٥) ألف مقاتل . وفي هذا الاثناء انسحب الشيخ (صفوك) من منصبه وترك الحكم للشيخ (شلاوش) . وعلى هذا ارسل الوالي خبراً الى حلفائه الجدد وبين لهم انه لم يعد فى حاجة الى معونتهم الا ان هؤلاء كانوا قد جاءوا من مسافات بعيدة . فطلبوا من الباشا ان ينفـــذ وعوده واستولوا على المراعي الغنية الموجودة في اطراف بغداد .

فطلب علي باشا هذه المرة المعونة من الشيخ (شلاوش) لمحاربة (عنزه) وقد وافق الشيخ (الشلاش) على هـــذا الطلب وحتى ان منافسه الشيخ صفوك الكبير ارسل ايضاً قوة من ألفي شخص باعتبار ان ذلك شرف لقبيلة الجرباء . الا ان عرب عنزه كانوا متفوقين بالعدد .

وقد استطاع (*Fraser*) في هذه الاثناء ان يدخل بغداد خـــلال الاضطرابات التي حدثت وقد خسر المعركة الوالي وصديقه الشيخ (شلاوش) تماماً دون ان يتعرض عرب عنزه للجنود النظاميين احتراماً للسلطان . إلا انهم محوا قوة الجرباء وقتلوا الشيخ الشاب . ولم يستفد عرب عنزه من المدافع التي غنموها من النظاميين (أي الجنود المدربين على الطراز الاوربي) .

وكانت المدينة اثناء زيارة *Fraser* مملوءة باللاجئين وذلك لأن الهاربين من قبيلة عنزه كانوا يبحثون عن ملجأ لهم في المحلات المتروكة في المدينة بالاضافة الى ان الأمن كان فيها مفقوداً (١) . واستمر عرب عنزه على حصارهم للمدينة .

وقد اراد (*Fraser*) زيارة خرائب (عكركوف) الكائنة قرب المدينة (كانوا يظنون ان هذه الخريبة كانت *Accad Nimrod* كما هو مكتوب في

1 - B. Fraser - Trav. I, C. I. Letter 13. P. 317-386

الكتاب الأول من *Mos . Io . Io*) ولكن مضارب عنزه كانت هنـــاك مسيطرة على كافة الطرق الكائنة بين الفرات ودجلة .

ولم يتمكن احد من السفر حتى الى الحلة ، حيث ان البدو الآخرين ينهبون الناس بأسم عنزه . حتى في الأماكن التي لم يكن عرب عنزه موجودين فيها . وكان السواح الهاربين يعودون الى المدينة عراة مجردين من كل لباس وينشرون الخوف بين سكانها .

وقد عاد علي باشا الى حيلته القديمة . فبدأ يتذاكر مع العدو من جهة ويقرب قبيلة (زبيد) اليه بوعود كثيرة من جهة اخرى .

وقد تضرر الزوار والسواح المساكين وذلك لأن المدن المقدسة كانت تحت رحمة اسوء الاشقياء والقتلة وبهذا كان يتعرض الزوار الذاهبين الى كربلاء الى شقاوتهم . ولم يكن الوالي القوة الكافية لتطهير هذه المناطق من الاشرار . فكانت كربلاء باجمعها في ثورة لوجود عصبة الاشقياء (المسماة *Yerim mases* أي دنيء بدون تفكير ؟)الموجودين بكثرة في تلك المنطقة التي تغلب على قوة (علي باشا) تلك القوة التي ارادت طردهم ففشلت . وقد سقطت عائلة النواب الهندي الآتية من *Karnatik* لزيارة كربلاء مع حاشيتها تحت رحمة هؤلاء الاشقياء . فكثرت الاضطرابات بنتيجة المنافسات التي حدثت في ايران للحصول على العرش بعد وفاة فتحي علي شاه .

وقد نهب العرب خدم الوالي في نفس مدينة بغداد . وقد قيل ان عرب (العكيل) هم الذين قاموا بذلك خصوصاً وان قسماً منهم يسكن في داخل المدينة حيث سبق (لسليمان باشا) ان اسكن بعضهم منذ حوالي (٦٠) عاماً في محلة ما ببغداد واعطى لهم امتيازاً بمرافقة القوافل بين بغداد وحلب

والشام واصل قبيلة عكيل من عربستان المرتفعة ، من نجد واشتدت قوتهم في بغداد فارهبوا المدينة الضعيفة. فغضب (علي باشا) عليهم وطلب من القبيلة باجمعها ان تترك بغداد وعلى رأسها شيوخها . إلا انهم رفضوا الانسحاب وقاوموه وقد دامت الاصطدامات بينهم بضعة ايام واخيراً تركوا المدينة في ٤ و ٥ كانون الأول ١٨٣٤ على اثر وصول قوات عرب « زبيد » امام ابواب المدينة وبعد ان طلب الوالي المعونة منهم .

وكانت قبيلة زبيد مالكة للاراضي الواقعة على الطريق السفلى الذي يصل الى الحلة ولكن نفوذها ضعيف وحيث ان شيخها كان في حالة حرب مع عشيرة « العكيل » من مدة طويلة لذا فقد سارعوا الى دعوة الوالي حالا. وزار (١) Fraser مقرهم امام المدينة .

وكما يروى فقد كانوا يمتازون جميعاً بطول القامة وضعف البنية ويسترسل شعر رأسهم الى الأسفل وتنم نظراتهم عن تعطشهم للصيد إلا ان معاملاتهم الخارجية واخلاقهم ومجاملاتهم كانت رفيعة جداً وهذه الخصائص لم تتوفر في الفلاح العادي بل تتوفر عند البدو الأصليين فقط . ولما ابدى Fraser لهم رغبته في زيارة أماكنهم في البادية وكشف لهم عن تخوفه على نفسه وعلى حاشيته وتسائل منهم عما اذا سيتعرضون لنهبه أم لا ، أجابوا على تلك الأسئلة - كما يقول Fraser - فرفعوا ايديهم على عيونهم ورؤسهم وقالوا له بأنه عزيز عليهم كهذه الأعضاء .

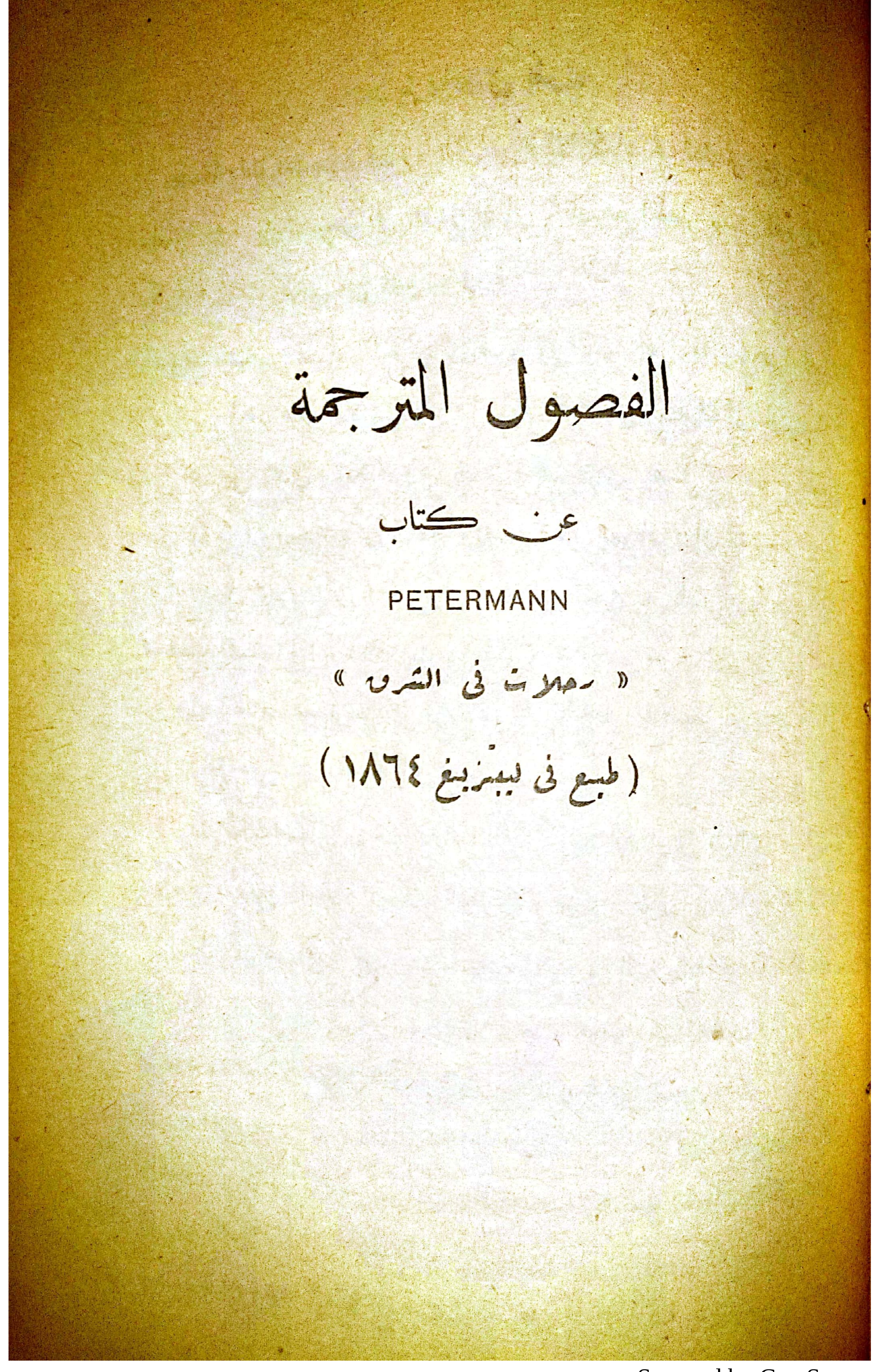
وكان الموسم شتاء والطقس بارداً وافراد الزبيد ينامون بين خيولهم على عباءاتهم بلا خيم كالكتل السوداء والقسم الأعظم منهم يحمل في حزامه

1 - B. Fraser - I. C. I Lett. 14. P. 337

سيفاً وخنجراً ولأكثرهم سلاح حديدي وهو قضيب حديدي ثقيل أو (حربة) مصنوعة من الحديد طولها خمسة أو ستة اقدام ويستعملونها كسلاح للرمي وتتدلى من اطراف سروجهم حراب قصيرة يبلغ عددها أحياناً الستة . يحسنون رميها بقوة ومهارة كبيرة ولهم ايضاً مطارق حديدية لها قضبان حديدية طولها ذراع وفي رأسها شوكة يلتقطون بواسطتها من فوق سروجهم كافة الأشياء الموجودة على الأرض . وقليل منهم من كان يملك البنادق . واسلحتهم الاساسية هي (المزراق) . وقد ركزوا منها كمية كبيرة على الارض فكانت بمنظرها هذا تشبه الغابات وخيولهم صغيرة وضعيفة ومن نوع رديء ...

وفي هذه الفترة كانت عنزة منسحبة من حول المدينة . وقد انغمس الزبيديون في اللهو وأضيف الشيخ مع حاشيته في بغداد واقيمت له الولائم تكريماً له في كل ليلة في احدى البيوت بالتناوب فكانوا يسهرون جميعاً بهذه الليالي وعلى رأسهم (علي باشا) .

وقد استفاد *Fraser* من حماية الزبيد هذه وتمكن من القيام برحلات في البادية في القسم الجنوبي في الجزيرة أو في *Mesopotamia* ونحن مدينون له بهذه المعلومات .



الفصول المترجمة

عن كتاب

PETERMANN

« رحلات فى الشرق »

(طبع فى ليبتزيغ ١٨٦٤)

بترمانه في بغداد

حسبما علمنا بعد مدة قصيرة ، ان ثورة الاكراد لم تقتصر على منطقة السليمانية فقط بل توسعت الى القسم الشمالي . فاصبح الخطر يهدد كافة المناطق الكردية بحيث يخشى من نشوب ثورة .

وقد بلغنا من مصادر اخرى ان قسماً من بدو شمر قد هاجموا السفير الايراني (احمد توفيق افندي) ، قبل ايام قليلة من وصولنا الى بغـــداد ، بنفس الطريق الذي سلكناه وفي نفس المكان الذي بقينا به ليلة والمسمى (دلي عباس) ويبعد حوالي ساعة ونصف عن شهربان . إن اشـــد القبائل بطشاً عندما سمعت بثورة الاكراد ، اخذت تقوم بحركات جريئة وتوسعت اعمالها في السلب والنهب فاقتربت من مدينة بغداد ، بحيث ان الوالي الذي خرج لصدها وتأديبها تعرض هو نفسه الى الخطر فأضطر الى جلب كافة القوات الموجودة في المدينة اليه .

وعلى ذلك اضطررت الى البقاء انا ايضاً طيلة الشتاء في بغداد وقد لبيت دعوات صديقي المستر (برول) المكررة ، فنزلت ضيفاً في داره شاكراً ، وبواسطته تعرفت ليس فقط على الجالية الأوربية الساكنة في بغداد من الانكليز والفرنسيين بل تعرفت ايضاً بالرجال العرب من المسلمين والمسيحيين واليهود ، الذين قدموا لي المخطوطات والآثار القديمة للبيع .

وبغداد لا تزال مركزاً تجارياً مهماً ترد اليها الاموال من اوروبا والهند وايران ويأتي العرب بالآثار القديمـــة كما يبيع اصحاب المكاتب من الفرس كنوزهم من المخطوطات النفيسة ، ولعل بغداد أكبر سوق للكتب بعد اصفهان وبهذا الشكل اتيحت لي الفرص لشراء كمية كبيرة من اجمل

واندر الكتب والمخطوطات العربية والفارسية للمكتبـــة الملكية في برلين .
واكثر هذه الكتب وجدها لي (ملا صالح) وهو شخص طيب القلب وذو
معرفة وهو من احد العرب الذين اشتهروا باستقامتهم ومعه ميرزا (كاتب
أو عالم) فارسي . ولكي يبقى هـــذان الشخصان (ملا صالح) و (المرزا)
راضيين عني وانتفع من فترة اقامتي ببغداد اخـــذت ادرس على هذين
الرجلين . ففي طلوع الشمس كان يأتي الي ملا صالح ويقرأ علي فصولا من
شعر شعراء العرب ونثر ناثريهم . وقد كان الملا من قبـــل (كتبياً) فكان
عارفاً بأدب قومه احسن من سواه وهو في الوقت نفسه شاعر وكان يلبث
معي حتى الساعة العاشرة صباحاً حيث يحين وقت افطارنا ، وبعدها يأتي
(المرزا) ويقرأ علي فصولا من نثر وشعر الفرس الى غاية الساعة الواحدة.
وكنت اقضي بقية الوقت في المطالعة وفي استقبال الزائرين أو في الزيارات
وفي شراء الاشيـــاء الكثيرة التي تعرض للبيع وبالتجول في خارج
اطراف البلدة .

وفي اثناء الجولة التي قمت بها في الثالث من كانون الثاني ومعي ممثل
جمعية الكتاب المقدس الانكليزية مستر (بروسلت) صادفنا قافلة مؤلفة من
الرقيق الأسود . وقد زرنا بساتين متعددة واراضي خضراء ، فيها ورود
طبيعية . وقد شاهدنا فيها شجرة تنبت في احد اغصانها عصارة حمراء . وقد
قال شخص يرافقنا ان هذه العصارة عبارة عن الدموع التي تذرفها هـــذه
الشجرة للجفاف الذي اصابها .

كما جلب انتباهي الى طير صغير ازرق اللون وله جناحان يكسوهما ريش
لونه أسود واصفر . وذكران هناك رواية تروى أن هذا الطائر تسبب في

قتل سيدنا الحسين (رض) ، فلذلك يقتله الفارسيون عندما يرونه ، وحسب رواياتهم هذه إن الحسين (رض) ضل طريقه وهو ظمآن فرأى سراباً وشهد هذا الطائر المسمى (زيطا) وهو يتوجه دائماً الى الماء ، فأخذ يطير امامه فظن الحسين (رض) ان هذا الطائر سيرشده الى الماء فتعقبه ولكنه لم يعثر على الماء بل وقع تحت يد اعدائه .

ان بغداد واقعة على هضبة واسعة وقليلة الارتفاع جداً ، يقطعها نهر دجلة من الوسط ولكن طرفي البلدة متصلان بجسر مؤلف من عدة زوارق ، وعلى ساحلي دجلة تنتشر البساتين بشكل طويل غير منقطع ومستمر على التوالي وتوجد غابات النخيل . وهذه المناطق تروى بواسطة الدواليب . وعلى ما ذكروا لي ينبت النخيل وتثمر اشجارها فقط في الاراضي المالحة .

والقسم الكبير من المدينة واقع في الجانب الأيسر ، محاط بسور عال الا انه متهدم في كثير من المواضع وفيه خندق عميق وجاف . فيه ثلاثة ابواب في الشرق والغرب والوسط .

وفي بغداد كثير من الجوامع الجميلة قبابها ومنائرها مزينة بالطابوق الملون اللامع . ومن هذه الجوامع المشهورة (جامع عبد القادر الكيلاني) الذي هو من أشهرها ، ولا سيما ان كثيراً من المغربين يتقاطرون الى زيارته .

وقد كانت بغداد في أول الأمر مبنية على الساحل الأيمن فقط . ولكن أحد وزراء هارون الرشيد وهو (جعفر البرمكي) أسس لأول مرة بساتين على الساحل الايسر ، وبعد ذلك نشأت محلة في هذا القسم ثم كبرت وتوسعت تدريجياً حتى اصبحت اكبر من الجانب الآخر . ومما يثير الحيرة انه لم يبق

من آثار العباسيين الا القليل والسبب في ذلك مثل ما هو في الشام ، ان كل طراز بيوتهم مبنية من الطابوق . حيث لا يوجد في أطراف بغداد الحجر ودجلة يجلب الطين فقط . لهذا السبب يحتمل أن تكون حتى القصور مبنية من المواد السريعة التلف ، لذا لم تستطع مقاومة أحداث الزمان . ولكن الاثر المهم الباقي والوحيد هو قبر زوجة هرون الرشيد (زبيدة) بشكل هرم كائن في الساحل الايسر لنهر دجلة ، لكن هذا أيضاً مبني من الطابوق الترابي . وعلى ما يذكرون عن زبيدة فانهـا بنت عدا القنال الذي ذكرناه سابقاً جداراً من ضريح علي الى مكة ليستطيع العميان من الحجاج أن يتحسسوا طريقهم بسهولة ، وقد حفرت الآبار في كل مرحلة ومع أن بعضها قد ردمها البدو الا ان بعضها موجود لحد الآن .

تنقسم بغداد الى عدة محلات ، (١٨) منها منقسمة من نجيب باشا علي القسم الايسر من نهر دجلة ، لكنها غير متساوية في السعة ، فمثلا توجد في أحدها (ألفا) دار وفي الاخرى (خمسون) داراً فقط . وكل هذه الاقسام تسمى « محلة » ، ولكل محلة (امام) واحد و (مختاران) .

وعلى ما أكدلي (رشيد باشا) والي هذه الولاية الكبيرة في تلك الفترة أن عدد الدور يبلغ (٩٠٠٠) دار ، لكن القسم الاكبر منها خربة من الداخل . واما عدد سكان بغداد فلا يتجاوز (٣٦٠٠٠) نسمة لأنه لا يمكن ان يزيد عدد أفراد الدار عن اربعة افراد ، وكان الوالي متقنعاً بحسابه لأنه احصى النفوس في السنة الماضية لأجل استحصال الضرائب لكنه لم يحسب أن الموظفين المختصين بهذه المهمة يتعاطون الرشوة ويسجلون بهذا الشكل أقل من الحقيقة .

والقناعة العامة ان عدد سكان المدينة بين (٦٠ و ٨٠) ألف وأغلبهم من المسلمين وعدد النصارى واليهود اقل بكثير (١) .

ومن النصارى يوجد حسب المصادر الموثوقة (٨) عوائل كاثوليك روم بدون كنيسة و (٨٠) عائلة من الأرمن من ذوي العقائد القديمة و (٦٠) عائلة سريانية – يعقوبية (كاثوليكية) و (١٢٠) عائلة كلدانية .

ويظن أن عدد اليهود هو (١٣٠٠) عائلة يؤدي منها (٢٣٠٠) شخص الخراج (ضريبة الرأس). واقدم كنيسة في بغداد هي كنيسة الكلدان لأن بغداد كانت لفترة طويلة مركز بطارقة النسطورين ونشأ عنهم الكلدانيون الا انه لا توجد مصادر تاريخية تدل على قدمها ويوجد (٣) قسس في تلك الكنيسة .

ويرجع تاريخ الأرمن في بغداد الى (٢٠٠) سنة (٢) ويحتمل أنهم احفاد الأرمن الذين جاء بهم (شاه عباس) الى ايران ، باعتبار أن اكثرهم قدم الى بغداد من جليفة وهمدان وعدد قليل منهم قادم من ديار بكر ولهم كنيستان ، أحداها قديمة والثانية جديدة كبيرة . وكانت الأرض التي عليها الكنيسة الاخيرة محلا للبشرين الانكليز ثم باعوها الى جماعة الأرمن وهؤلاء بواسطة بطريك الأرمن في الاستانة والسفير الانكليزي لورد دوكليف حصلوا على فرمان سنة ١٨٣٨ لبناء الكنيسة . وفي الكنيستين يوجد قسس واحد اعزب يسمى *Wardape* وقسان متزوجان وفي ١٨ كانون الثاني – على حسابهم الذي على الطراز القديم – احتفلوا بعيد (انياماس) ، فحضرت الى الكنيسة الجديدة حيث اجريت في هذا العيد مراسيم ولادة عيسى بموجب

---

(١) كانت نفوس بغداد اكثر قبلا ولكن عندما دخلها لاكو قتل ٧٠٠،٠٠٠ شخص من سكانها – المؤلف –

(٢) الكتاب مؤلف في سنة ١٨٥٠ – المترجم –)

عاداتهم القديمة . وللأرمن الكاثوليك بيعة صغيرة فيها قس واحد . وقد أخذ كافة نصارى الكاثوليك ببغداد التقويم الغريغورياني الا أن في قيود الكنيسة وسجلاتها ما يشير الى أن الشرقيين يستعملون التقويم العائد الى زمن السلوقيين وينظمون معاملاتهم في حياتهم اليومية حسب ولادة عيسى .

وعلى ما أكد لي (ملا صالح) ، أن ببغداد ما يقارب (٥٠٠٠) بابي (بهائي) بين مسلمي المدينة ممن فروا من ايران والتجأوا اليها (بغداد) وبين اولئك البابيين امرأة شابة اسمها (قرة العين) وهي مقدسة ، وقد تميزت بجمالها وعلمها وقد سلم الوالي نجيب باشا هذه المرأة الى الفرس فالتحق بها مئات من اتباعها وقتلوا معها ولهم كتب دينية خاصة وقد وقف الملا صالح نفسه على بعض تلك الكتب . ومما يتميز به البابيون اخلاص بعضهم لبعض وابتعادهم عن الكذب

ويخيل للشخص ان مقر الخلافة العباسية المشهورة لا بد وان يكون على شكل ابدع بكثير مما هو عليه . ولكن في الحقيقة ان ساحلي نهر دجلة ، الذي تجري مياهه ببطء وحيث يوجد على ضفتيه خط طويل من النخيل يبدو للسواح الاوربيين بشكل جذاب رائع غير اننا لا نتمكن على كل حال ان نسمي داخل المدينة جميلا واذا استثنينا من بغداد قبابها الجميلة ومنائرها البديعة ، فهي لا تختلف عن سائر المدن الشرقية الاخرى الا في سعتها واكثر ازقتها ضيقة ممتلئة بالزوايا غير مفروشة بالحجر بحيث يصعب السير فيها اثناء هطول الامطار اما اسواقها فبعضها مسقف والبيوت مبنية من الداخل بناء بسيطاً بعيداً عن الفن والزينة .

وكان في دار المستر (برول) في القسم الأيمن من الحوش الواسع

والمطبق بالكاشي ، (هول) مفتوح يسمى بـ (الايوان) في بغـــداد ، وبجانبه غرفتان تحتهما سرداب كبير يستعمل اثنــاء الصيف كمسكن . وفي مدخله باب يصل الى المطبخ عبر (هول) صغير وفي الوسط ، مقابل باب الدار تقريباً ، يوجــــد ايوان ثان كبير . وفي الايوان الأول ينام مستر (برول) ، وفي الثاني كنا نتناول فطورنا وغــدائنا وكنت اجلس في هذا الايوان ليل نهار لاني كنت افرش فيه منامي في الليل وبمناسبة قرب موسم الامطار لم نعد ننام في السطوح .

وفي ٢٢ تشرين الأول سقطت أولى قطرات المطر والى اواسط تشرين الثاني كان المناخ حاراً في الليل فكنت اشعر بحر عند استعمال اللحاف . الا ان الحر يزول ويبرد المناخ قبيــل طلوع الشمس لذلك رجحت (الهول) المفتوح على الغرفة المقفلة ، وقد تفضل المستر (برول) فقدم لي (الهول) كرماً منه لي لكي انام فيه وذلك لعدم استطاعتي النوم براحــة في الغرفة لشدة القيظ وعلى ذلك امضيت شتاء كاملا في الايوان والى جانب هذا الايوان درج صغير يؤدي الى قسم مرتفع مبني من الخشب وعلى جانبي هذا المرتفع دواوين ويوجد ايضاً غرفــة واسعة يضم جانباها دواوين وكراسي ومنضدة وموقد .

وامام الغرفة دهليز صغير وقد كانت الغرفة مفروشة بالزوالي اما الغرفة التي اقطن فيها فهي مفروشة بالزولية وفي اطرافها الثلاثة دواوين وكنا عادة نستقبل زوارنا في هــذه الغرفة الا أن المستر (برول) اعتاد على استقبال زائريه الخصوصيين في المكان الخشبي المرتفع .

وفي ٢٩ و ٣٠ تشرين الأول هبطت امطار غزيرة وفي الرابع من تشرين

الثاني هبت في المساء عاصفة شديدة استمرت الى منتصف الليل حيث نزل مطر قليل اعقبه برد خفيف في الهواء لذا بقي المناخ جميلا جداً مدة ثمانية ايام بحيث جذبنا الى النزهة خارج ابواب المدينة بساعات متأخرة وفي نزهاتنا لفت نظري ان الصبيان كانوا يهتفون وراءنا في الازقة (*Hartmann*) ولم افهم سر تلك الهتافات كما ان احداً لم يذكر بانه قد سبق مجيء شخص يحمل هذا الاسم الى بغداد .

وفي ١١ تشرين الثاني تلبدت السماء بالغيوم مرة اخرى وكنا نتوقع سقوط المطر ولكنه لم يسقط الا في نهاية الشهر .

وفي بداية تشرين الثاني انتشرت انباء في بغداد عن تقدم الجيش الروسي الى مدينة ارضروم ووصلت هذه الشائعات من طهران عن طريق اصفهان . ولم يلق الخبر تصديقاً بحق بالنظر لان الروس هم الذين تعمدوا اشاعة ذلك الخبر عن قصد لغرض القاء الرعب في قلب الشاه من زيادة قواتهم لينضم اليهم ويكون في قبضة ايديهم ومع ذلك كان يبدو ان الشاه ميال الى جانب الروس ولكنه في الظاهر مضطر الى المحافظة على الحياد لان الخزينة كانت خالية الوفاض من ناحية ولأنه كان يخشى من الانكليز من ناحية اخرى لتمكنهم من جلب جيش بسرعة من الهند لمضايقته بالقوة وبالرغم من وجود المدربين الالمان والاجانب كان الجيش الفارسي غير منظم .

يتوافد الى بغداد زوار ايرانيون باستمرار . وفي هذه السنة فقط يقدر عددهم (بستين ألف) زائر وذلك ان (الكرنتينة) الموجودة في خانقين اعطت تذاكر بهذا العدد للزوار .

وفيما عدا ذلك كانت الرحلات الى جوار بغداد محظورة طيلة الشتاء بكامله

وقد قطع معنا تاجر من السليمانية الطريق من خانقين الى بغداد قاد أعلى رجليه وكانت بضائعه قد نهبت وحيث ان والي الموصل كان تابعاً من الوجهة العسكرية الى والي بغداد لذلك جاء هذا الشخص الى بغداد ليطلب مساعدة الوالي غير انه لا يؤمل نجاحه في مسعاه هذا ، بل ربما سيعود أفقر مما كان عليه من قبل . ولم يكن لوالي الموصل عدد كاف من القوات أو ارادة قوية لتأديب المتمردين من الأكراد . وهذا الأمر يكشف عن مبلغ قلة الأمن وشدة المخاطر التي تحدق بالمسافر حتى في وقت السلم . ففي السنة الماضية حدث ان صبياً من اهالي (عنة) الواقعة على الفرات كان يعمل في أشهر الصيف عند مستر (برول) في تنظيم المروحة مقابل ثلاثة قروش وعندما عاد الى موطنه أودع بعض دراهمه وملابسه عند أحد تجار بغـــداد واخبر مستر (برول) انه سيعود الى مدينة ابائه عارياً من كل شيء خشية ان يسلبه قطاع الطريق .

وقد أفتقد الأمن في هذا الشتاء بشكل أوسع ففي أواخر تشرين الثاني بلغنا ان قافلة كبيرة في طريقها من الحلة الى بغداد تعرضت لهجوم شمر ونهبت نهباً تاماً . والواقع ان الأكراد المنتسبين لعشيرة الجاو أو (جاف) قدموا الطاعة ودفعوا الجزية الى الحكومة ولكن سمعنا مقابل ذلك ان الأكراد الساكنين في زاخو (في شمال غرب الموصل) قد ثاروا فأسروا مدير الناحية وقتلوه وقطعوا بهذا الشكل كل صلة بين كل المناطق الغربية والشمالية الغربية . فارسل الوالي الجند ضد البدو حيث اسروا عدداً منهم مع خيولهم التي بيعت في الأسواق بسعر رخيص . ومع ذلك بلغنا بعد مدة وجيزة ان قافلة زوار ايرانيين تعرضت ايضاً بين بغداد والحلة الى هجوم ونهب . على ان العرب



خان في بغـداد قبل ١٠٠ عام

كانوا يقومون بالنهب فقط ولا يصيبون المسافرين بأذى اذا لم يبادروهم بالمقاومة فاذا ابدى المسافرون مقاومة لهم وقتلوا لسوء حظهم شخصاً من البدو فعند ذلك يضطر البدو لعمل نفس الشيء، أي القتل أخذاً بقاعدة الثأر .

والحق ان للعرب قيم نبيلة كالفرسان في القرون الوسطى في أوروبا وبالرغم من شقاوتهم فلهم مثل عليا في الشهامة . فكانوا يعتبرون الاراضي التي يتجولون فيها ملكاً لهم لذلك تعودوا أن يأخذوا من المارة كالسواح دراهم للمرور فيها . فاذا قدم المبلغ لهم أو اتفق مع زعيمهم ساروا في طريقهم بامان كما هو شأن الطرق في أوروبا . ومن يمتنع عن ذلك من السواح يتعرض الى سلب كافة أمواله . ومن مثلهم العليا أنهم يتحاشون التعرض لسلب النساء والبنات بل يسهلون سبيل السير لهن . والسبب في ذلك على مايقال ان أعرابياً سلب امرأة فمات في نفس اليوم .

وقد بلغتنا معلومات عن سقوط (زاخو) التي سبق أن ذكرناها : أن (اردشير) أو الاصح (يزدشير بك) الذي هو من اقرب أقارب (بدرخان) المشهور جاء الى الموصل مع حاشيته وتعهد الى والي الموصل بأنه يستطيع اذا ما منحه الأموال والضباط أن ينظم جيشاً بقوة (١٠،٠٠٠) محارب لمحاربة الروس ، وسر الوالي بهذه البشرى ووعده بالأمرين ، مع العلم أنه يوجد كفاية من الضباط في الجيش العثماني . وفي الطريق قتل انصار (يزدشير) الضباط الاتراك وبعد ذلك ترأس يزدشير بك قوته التي بلغت بين (١٦ـ١٨) ألف مقاتلا وتقدم الى الجزيرة البائسة التي كان أهاليها متضايقين في السنة الماضية فكانوا يعيشون بشق الانفس . وبعد أن فرت القوات العثمانية التي يقارب عددها (٥٠٠٠) جندي أمامهم احتلوا زاخو واسروا المتصرف وهذه المدينة

(زاخو) تقع في منتصف الطريق بين الموصل والجزيرة لذلك لم يتمكنوا من دخولها من قبل . ولما كانت هذه المنطقة مسكونة من قبل الاكراد ، لم يكن من العسير على هذه القوات أن تتقدم . فساد الخوف مدينة الموصل لأن عدد الجنود فيها قليل وقد حاول يزدشير ان يتحاشى فشل ثورته فكتب الى القناصل الانكليزية والفرنسية في الموصل يعلن فيها اعترافه بحكم السلطان ويرد أسباب ثورته الى ما انزله الوالي برجاله من افعال قسرية وغير قانونية . وقد وجد والي بغداد نفسه مضطراً لارسال الجند الى الموصل فبعث بـ (٤٠٠٠) شخص الا ان هذا العدد كان قليلا بالنسبة للاكراد الثوار الذين اعتادوا على الحروب وبالطبع كان من المؤمل أن تلحق هذه الثورة بالباب العالي خسائر فادحة بكل سهولة . لأن كافة الجبال الكردية في الاناضول يسكنها الاكراد الذين من المتوقع أن يلتفوا حول هذا الزعيم المنتسب الى عائلة تحتل مركزاً كبيراً عندهم وقد قمع العثمانيون ثورة الاكراد بعد اشهر قليلة بصورة فجائية .

اما اضرار هذه الحركة بالنسبة لبغداد فقد كانت تنحصر في قطع البريد من الاستانة ومنع والي الموصل من تصدير المنتوجات المحلية من ولايته . وفي هذه الفترة نشط البدو في قطع الطرقات في الجنوب والشرق من بغداد . فارتفعت الاسعار وساد الغلاء الذي استمر طيلة الشتاء . ولم يستطع البدو الهجوم على السفينة التجارية الانكليزية التي كانت تحمل البضائع من الهند مرة في كل شهر بشكل منتظم . كما أن البريد الأوربي ، الذي كان سابقاً يرد مرة في كل ثلاثة اسابيع ومنذ سنة (١٨٥٥) يرد مره واحدة في كل اربعة عشر يوماً . فكان يسير بين بيروت وبغداد بواسطة البريد الانكليزي ، بينما يقطع الساعي

هذا الطريق على هجين (جمل سريع) في حوالي (١٠) أو (١٢) يوماً ومن الشام الى بيروت في (٢٠) ساعة عادة . غير انه في أحد المرات قطع الساعي هذا الطريق في (١٠) أيام بسبب ما ادعاه من سقوط الثلوج وارتفاعها الى (١٢) قدم . وكانت الثلوج شيئاً غير مسموع به في بغداد .

وفي أواسط تشرين الثاني عند ما بدأ الطقس يبرد ، اختفى البط الوحشي عن الانظار . وتكاثر البعوض والزنابير بشكل مضايق لا يحتمل . وبعد هطول الامطـــار القليلة في أواخر الشهر عادت حالة الطقس فتحسنت من جديد . وبين (١٦) و (١٨) من كانون الأول هطلت الامطار بشدة واعقب ذلك تحسن في الطقس دام حتى (٤) كانون الثاني . وفي مساء هذا اليوم نزل مطر شديد مع عاصفة قوية الا انهما انقطعا في منتصف الليل وتكرر سقوط الامطار بعد (١٤) يوم أي في (١٩) و (٢٠) من هـذا الشهر . واصبح الطقس بارداً في الصباح والمســاء بحيث اضطرنا الى استعمال الموقد في الغرفة العليا وقد اشتد البرد بحيث تجمدت المياه في احدى الليالي . إلا انني كنت مع ذلك انام في الهول المفتوح . وحل الربيع تماماً في اواسط شباط ، فتجمعت اللقالق على المنائر وأخذت الطيور تطير في السـماء بفرح . الا ان الامطار كانت تسقط بغزارة دائماً ، بحيث تتجمع في الحفر في بساتين النخل فلما تتكاثر تنحدر فضلة المياه الى سهل حول بغداد فتجعل بغداد كما لو كانت محاطة بالمياه فكأننا كنا نعيش في جزيرة . وبالتدريج جفت المياه واعتدل المناخ واصبح لطيفاً منعشاً في الصباح والمساء ولـكن الحر كان شديداً في الظهيرة فكنا نضطر الى ملازمة الدور اثناء سقوط الامطار أو بعدها بقليل بالنظر لأن

الأزقة تمتلىء بالماء مما يصعب السير عليها فكنا نخشى التزحلق والوقوع في المياه المتجمعة في مختلف الأماكن . وكانت حرارة الشمس شديدة عند الظهر حتى في كانون الثاني ، مما تعمل على تجفيف المياه بسرعة ، لذلك يحلو النزهات الى الخارج بعد سقوط المطر في الهواء النقي بالنظر لخضرة الحدائق وبهجة المراعي .

وكانت دار المستر (برول) غير مريحة نوعا ما بالنسبة اليه . حيث تقع في زقاق ضيق بين عدة بيوت ، في مكان بعيد عن مقر القنصلية ، تخفى عنها المناظر البعيدة التي تظهر من السطح فقط . وهي من الضيق بحيث لا تصلح لأقامة المراسيم الدينية ، بالنظر لأنه في كل يوم أحد تقام مراسيم عبادة (عبرانية) تعقبها صلاة انكليزية تقام في القنصلية العامة . وكنا احياناً نقيم الصلاة بالشكل الذي يقوم به الأرمن ، وحدث أن شخصاً ارمنياً قادماً من ديار بكر بقي مده طويلة يشاركني في الصلاة فحاول المستر (برول) ، استئجار دار جديدة تحتوي على قاعة كبيرة يستعملها للصلاة وتقرب من القنصلية . واتفق أن وجد داراً تتوفر فيها هذه الشروط تقع قرب قصر الكولونيل (*Rawlinson*) في زقاق عريض بدرجة كافيه ، يسكنه اكثر الانكليز والدار تطل على ساحل دجلة ، فكان منظرها يشرف على الشاطىء المقابل لبساتين النخل المحيطة بالمدينة . ولكن شخصاً انكليزياً آخراً كان راغباً في استيجار نفس الدار . إلا ان صاحبة الدار ارسلت وكيلها الى مستر (برول) وطلبت اليه استيجار الدار وقالت له انها لا ترغب بتأجيره لذلك الشخص مهما كان المبلغ الذي وعد بدفعه كبيراً .

ونزيد ايضاحاً ان وكيلها ، الذي كان يدعى انه ينحدر في نسبه عن

ابي بكر ، الخليفة الأول ، جاء يرافقه كاتب وملا والأمر الذي يبعث على الاستغراب ، هو حاجة الشرقيين الماسة الى النقود وبهذه الحاجة اضطروا مستر (برول) على دفع (٥٠٠) تالر سلفاً وهو مبلغ الايجار لمدة (٣) سنوات نقداً ومقدماً فسلموا اليه عوض ذلك المقاولة ومفتاح الدار .

فلما اقتنع المستر (برول) بأنه اضحى صاحب الدار ، بدأنا ننقل في هـــذا اليوم واليوم الثاني حاجاتنا محملة على الحيوانات والحمالين وفي اليوم الثاني مساء بعثت صاحبة الدار خادمها الى (مستر برول) وطلبت اليه تسليم مفتاح الدار ، لأن ذلك الشخص الانجليزي الآخر يدعى ان بعض الشبابيك والابواب تعود لصديقه القديم ، الذي كان يسكنها من قبل ، فاشتكى وسجن وكيلها . فعلى ذلك فقد كتب المستر (برول) رسالة الى الانكليزي وطلب اليه ان يطلق سراح المسجون ويتريث الى اليوم الثاني ولكن الرسالة ارجعت اليه دون ان تفتح . ولم يقدم احد في يوم الثاني لتسلم الشبابيك والابواب . وعلى ذلك كان الانكليزي يطالب بالدار ويدعى انـــه اسبق بالاستئجار .

وقد رفعت الدعوى الى المحكمة . فجلب الانكليزي (٣٠) شاهد زور ، وبالرغم من ان الوكيل قد رد هذه الشهادات ، الا انهم ادعوا بأن هـــذا الوكيل وعـــد قبل يومين من استئجار المستر (برول) بحضورهم بتأجير الدار الى الانكليزي سنوياً . وكان وكيل مستر برول يهودياً متنصراً . لانه لم يستطع الحضور بنفسه الى المحكمة لاظهار طاعته للقوانين العثمانية . اما وكيله فقد طلب سماع الشهود واحداً واحداً لاستجوابهم إلا ان وكيل القاضي وكان مرتشياً أو ميـــالا للطرف الآخر لسبب ما غضب

وثار ... فاكتفوا بهذا القدر من الشهود واصدر القاضي حكمه بفسخ عقد المقاولة المحررة لمستر « برول » وأضيف بأن الانكليزي بعد انواع الاسترحامات والوعود والتهديدات استطاع اقناع صاحبة الدار بتعيين وكيل آخر ، فنظموا مقاولة جديدة ، كتبت بتاريخ سابق بيومين لتاريخ مقاولة المستر « برول » واعادت المرأة المبلغ المدفوع مقدماً ، فاضطررنا الى جمع حوائجنا وانتقلنا الى دارنا القديمة . وقد لفتت نظري قدرة جمع الانكليزي هذا العدد من الشهود وقد اتضح لي ان كثيراً من فقراء العرب قد جعلوا من ذلك الأمر وسيلة للمعيشة . ممن يحضرون الى بغداد ويجلسون طيلة النهار ، اثناء انعقاد المحاكم في المقاهي القريبة منها ، ويلمون طلب المحتاجين ويبدون استعدادهم لحلف اليمين والشهادة لكل قضية مقابل دراهم معدودة .

وفي هذه الفترة حدثت حفلة زواج لمسلم ، دعيت اليه كأكثر الانكليز لأن البغداديين كانوا يحسبونني واحداً منهم . وعلى ما روى لي (الملا) جواباً على سؤالي ان المسلم اذا شاء الزواج فعليه مراجعة (امام) المحلة ليكاشفه برغبته في الزواج من فلانة الفتاة او الأرملة . فيسأله الأمام عما اذا كانت الفتاة موافقة ام لا فيجيبه بالايجاب ، فيسأله الامام عن مبلغ ما يدفعه للزواج من المال وما مقدار المهر المعجل وما المبلغ الذي يدفع اليها فيما اذا توفي قبلها أو طلقها (المهر المؤجل) ، فيجيب عن المبلغين . ثم يذهب الامام الى العروس فيسألها بحضور اقاربها . وفي بادىء الأمر تستحي الفتاة فلا تجيب ولكنها تعترف بعد ذلك بأنها متفقان وتذكر مقدار جهازها وعلى ذلك يعين وكيل يكون في اغلب الاوقات الأب أو اذا كان متوفياً يحل محله عمها أو اخوها وكذلك يعين الرجل وكيلا عنه وبعد ذلك يكتب الامام

ورقة النكاح ويوقعها بميسم بالحبر كما توقع الاوراق الاخرى بالحبر ايضاً وليس بالشمع حتى اذا تم ذلك يؤيده بالمهر أيضاً اثنان من مختاري المحلة ثم يأخذ الامام المقاولة الى المحكمة عند القاضي أو وكيله ويذهب معه الوكيلان (عن الفتى والفتاة) ويضعون ابهامهم الأيمن الواحد فوق الآخر تحت كفية (منديل) ويتلون دعاء مقدساً وبعد ذلك تملىء الورقة المطبوعة والممهورة (بطغرى) وينعقد الزواج بهذا الشكل فيحضر العريس الدار بعد تمام الجهاز ويأخذ العروس من الحرم . وعندئذ تتقدم امرأة فتضع يد العروسة في يد العريس . فاذا اتفق ان الأب لم يكن وكيلا أو لم يكن راضياً بالزواج فعند ذلك يقدم العم بذلك أو اخ العريس بالرغم من معارضة الأب واذا كان الجميع مخالفين يتم اجراء المراسيم في حالة عدم كون العريس مجرماً بعقد الزواج بموجب المذهب الحنفي ، ولكن لا يجوز ذلك بموجب المذهب الشافعي والمالكي . وحسبما رأيت انه يوجد عند المسلمين ايضاً فرصة للتعارف والميل قبل الزواج كشرط . واذا رغب البدوي في الزواج يخرج للنهب فيبحث عن اشخاص يؤسرهم ويطلب مقابل فك اسارهم مبلغاً يختلف باختلاف ثروتهم . وبهذه الطريقة يحقق له ثروة تؤمن أو تسهل زواجه وجهازه .

وبطبيعة الحال لم أر كل هذه المظاهر في حفلة الزواج التي دعيت اليها ، بل كانت المراسم منتهية الا ان الوليمة التي عقدت بمناسبتها كانت تدوم مدة أربعة عشرة يوماً ، وفي كل يوم تقام الولائم وفي الليالي يحملون المشاعل ويسيرون بها في الأزقة وفي آخر تلك الولائم حدث ان اقيمت وليمة خاصة للانكليز وكان العريس الشاب محمياً من قبل الانكليز وهو ابن مسلم ثري من أهل بغداد وقد ذهبنا تحت رئاسة الكولونيل *Rawlinson* الى دار

المتزوجين الجديدين فدخلنا الصالون حيث كانت الأرائك معدة لنا وحسب العادة كان خلف كل واحد منا رجل يسمى (جبوقجي) يحمل غليوناً طويلا ونارگيلة وفي أول جلوسنا ابتدأوا في اشعالها وتقديمها لنا ، وقد قدموا لنا ايضاً ليمونات وقهوة وفي هذه الاثناء كانت الموسيقى تصدح بصورة مستمرة والأغاني الرخيصة ترتفع ، واما الآلات الموسيقية فمؤلفة من دنبكين صغيرين ودف واحد وقانون كانوا يعزفون عليه بقطع خشبية صغيرة ونوع من الكمان الذي له صندوق صوت صغير .

وبعد ان فرغنا من تدخين عدد من الغليونات قادونا الى صالون آخر فيه منضدة على الطراز الأوربي محاطة بكراسي ، فجلسنا عليها وقد جلس العريس وأخوه الأكبر في آخر المنضدة ولما كانا لا يعرفان استعمال الملعقة والشوكة فكانا يقطعان اللحم الى قطع صغيرة لكي يستطيعا أكلها بواسطة الملعقة ، ولا حاجة الى القول بأنهما لم يشربا الخمر لانهما لم يرغبا ان يكونا مثلا سيئاً لخدم المسلمين واثارة كراهيتهم ، الا انهم قدموا لنا (شمبانيا) و (شري) و (پورت واين) وقد وجدت اقداحاً خاصة بالشامبانيا لأن الصحون والاقداح كافتها استعيرت من القنصلية ، وفي الوقت نفسه لم تخل المائدة من المشروب ، وبعد ان رفعت المائدة رجعنا الى الصالون الأول وكما دخلنا أول مرة استقبلنا التخت بالموسيقى ، وبينما كنا ندخن غليوننا ونشرب معه القهوة كان عجوز يهودي يدق الدف ويقوم بحركات تبعث على السخرية فيرقص تارة ويقفز طوراً ويقوم بالقاء النكات المبتذلة السخيفة بين حين وآخر التي كانت تنتزع اعجاب الحاضرين من المسلمين ...

وفي الليلة المقدسة السابقة لميلاد عيسى كنا مدعوين عند الكولونيل

(Rawlinson) ومن المعلوم أن الانكليز يحتفلون بالعيد في اليوم الأول فقط .
فدعانا ايضاً في ذلك اليوم عندة فذهبنا ، نحن وجميع الاوربيين وزوجاتهم
ووجوه نصارى الـكنيسة الشرقية في بغداد الذين كانوا حاضرين في قصره
المزدان وكان تخت الوالي يعزف الالحان الأوربية وعند رجوعنا الى الدار
تقدمنا اشخاص يحملون المشاعل ولم يبدأ الغداء الاحوالي الساعة الثامنة مساء
اما العشاء فتناولوه في منتصف الليل ولم نستطع حضوره وكانت المأكولات
نفيسة حيث ضمت المائدة أحسن نبيذ من أوروبا .

وفي اليوم الثاني سافر الـكولونيل (Rawlinson) برفقة عدد من
الانكليز الى سلمان باك بالباخرة لصيد الخنزير الوحشي،وقد تعمد الكولونيل
ذلك تخلصاً من زيارات التهنئة التي تستغرق طيلة نهار اليوم الأول من السنة
الجديدة وقد بقي هناك الى اليوم الثاني من كانون الثاني . ودعينا نحن
كذلك الى الصيد ولـكنني قررت البقاء في بغداد لرداءة الطقس ولعدم
وجود حصان هادىء استعمله في الاياب . فتحركت الباخرة من سلمان باك
الى البصرة لغرض استقبال السفير الانكليزي الجديد لطهران مستر(موراي)
واخذه وقد اعقبهم مستر (برول) مع عدد من الانـكليز راكبين الخيل
بعد يومين ولـكنه رجع مرة أخرى في (٣٠) كانون الأول . وفي هـذا
الصيد كانوا يطاردون الخنازير على الخيل وهم يحملون الرماح واستطاع أحد
الانكليز من الشبان المدعو (جونسون) طعن الخنزير بالرمح ولـكنه وقع
عن الحصان فتعرض الى خطر افتراسه اذ هجم الخنزير عليه ولكن لحسن الحظ
اسرعوا الى انقاذه بطعن الخنزير قبل أن يدركه .
الا أن يده رضت اثناء سقوطه من الحصان . وفي الصيد الثاني الذي اعقب

الصيد الأول بعدة وجيزة لازم سوء الخط الكولونيل Rawlinson فكسر كتفه الايسر واضطر الى ملازمة الفراش اسابيع متعددة ولكنه مع ذلك لم يمتنذر عن استقبال ضيوفه فاستقبلنا في يوم الاحد لتناول الغداء كالمعتاد وكان يحل محله في القنصلية الدكتور (هيسلوب) . وقد سرتني معرفتي بالكولونيل Rawlinson جـداً حيث وجدته شخصاً كهلا ضعيف البنية طويل القامة عسكري المنظر ، أهلا ليكون قائداً وبقدر ما كان جندياً كان عالماً . فقد عاش في الهند وايران سنين كثيرة لذا كان يحسن اللغـة الهندوستانية والفارسية والتركية والفرنسية والعربية ويفهـم الالمانية واللاتينية واليونانية والعبرانية والكلدانية ، وقد اكسبته مواصلته دراسة الخط المسماري شهرة عالمية وساعدته معلوماته في الألسنة على قيامه بهمة لا تعرف الكلل بالحفريات والاستكشافات للتوصل الى آثار قديمة في اشكال مختلفة ومن ثمار رحلاته الى كردستان وايران وتركيا وغيرها من المواطن الغنية بالآثار القديمة اكتشافه الخزائن التي كانت مخبئة لحد الآن ، واني لمدين له بحسن وفادته وجميل استقباله وقد تعلمت منه عدة قضايا وقسماً من نظرياته وهي قد تكون غير مصيبة ولكنهـا تدل على كل حال على مبلغ ذكاءه وعميق ادراكه . فلما كنت في بغـداد زار الحلة وبدأ في حفريات (بئر نمرود) للبحث عن برج بابل فالاسطوانات الحجرية التي وجدت في الآثار القديمة كانت توجد لحد الآن في زوايا الشمال الشرقي او الجنوب الشرقي دائماً في الحفريات القديمة. وكان الكولونيل Rawlinson يشير بواسطة البوصلة الى مـكانين معينين كان يلزم رفـع الاحجار منهما وبالفعل لما رفعت هذه الاحجار وكما كان يتوقع عثر على اسطوانتين نقش فيهما بالخط المسماري ، فلما عاد ارائي

اياها والمستر برول ، وكانت هاتان الاسطوانتان سالمتين من التلف ويبدو عليهما الخط المسماري واضحاً ، وعلى ما اكد لي أن هاتين الاسطوانتين تحملان أخباراً قديمة ويفهم منها أن البرج مشيد قبل (٥٠٤) سنوات من زمان (نبوخذ نصر) وقد شيده خادم الملك (ما دورات) لكي يكون معبداً لسبع طبقات السماء . وهذا الوصف كان يظهر مع الألوان المختلفة التي كنا نرى بعضها . وعلى ما يروى الكولونيل *Rawlinson* ان مدينة بابل وبرج بابل كما هو مذكور في الأنجيل كان يجب ان يقعا قرب اتصال دجلة بالفرات وكذلك حسب تحرياته أن موقع بغداد القديم هو في الهارونية التي شيدها هرون الرشيد وقرية الهارون التي تقع قرب هذا المكان توضح هذا الأمر وأما سامراء فهي المدينة القديمة المعروفة بسر من رأى ..

وفي قرب الزهاب التي تقع قرب (العمادية) يوجد تل عليه مخطوطات أرمنية وفي السليمانية على الجبال يوجد خط پهلوي طويل يبحث عن اعمال (أردشير بابكان) وقسم غير قليل من هذه الاحجار واقع من الجبال على طرفي الشارع وخط الجمل الأولية اكبر من خط الجمل الاخيرة ، وقد بقي الكولونيل *Rawlinson* (٣) أيام هناك نظم خلالها (١٣) حجراً بموجب خطوطها واستنسخها ولكنه لم يتمكن من تنظيم بقية الاحجار . ويسمى الكولونيل هذا الخط (اخمنى) وأن كان يبدو كالخط الأرمني .

وبعد ذلك لابد لي من البحث عن الكابتن (جونسن) وهو صديقه منذ زمن طويل وهو الآن يمثل في(بوشير) الهند الشرقية وزوجته كلدانية جميلة ومحبوبة وقد كان ضابطاً بحرياً قديراً وهو شديد اثناء الخدمة ولكنه انساني ولطيف خارج اعمال الوظيفة ، وقد اخذت منه خريطة دقيقة لمدينة

(نينوى) ، وحسبما يقول هو أن الفرسخ الفارسي يساوي (٣) اميال انكليزية واذكر الآن الدكتورين الانكليزيين وهما الدكتور Hyslop والدكتور Wood الدكتور الخاص بملاحي البواخر الذي كانت له عيادة يومية ويزور المرضى الملازمين للفراش في دورهم ويحضر الأدوية للمرضى مثلما يحضرها الأطباء العرب بالنظر لعدم وجود الصيدليات في بغداد ولم يكن يأخذ مقابل ذلك عوضاً .

وفيما عدا ذلك كان في بغداد تاجران انكليزيان احدهما البحار المشهور لنج واسمه مستر Lynch والثاني مستر Hector وصديق الأخير مستر Howard الذي كان يتقن الآداب الالمانية ولكنه غادر بغداد مع زوجته سنة ١٨٥٤ وبعد ذلك عاد الى الهند من انكلترة .

وهذان تاجران يجلبان في كل عام بضائع من انكلترة ويصرفان تلك السلع في اسواق بغداد بسهولة . وقد ارسلت بواسطة باخرة مستر لنج الراجعة الاشياء التي اشتريتها للمتحف والمكتبة الملكية الى لندن ومنها الى برلين .

وفيما عدا ذلك تعرفت بشاب انكليزي اسمه مستر Okley وصديقه الراهب Leecrof وقد بقيا اشهرا قليلة في بغداد وامضينا عندهم ليالي مفرحة .

وعدا ذلك كان في بغداد تاجر الماني اصله من بوهميا واسمه Swoboda يسكن بغداد منذ حوالي (٣٦) سنة وكان يتاجر في بيع الزجاجيات المرسلة له من بوهميا ، اما ابوه فكان من مدينة براغ وامه نمساوية من ولاية (شتايرمارق) وهو مولود في هنغاريا وبما ان زوجته عربية كان حديثهم في الدار باللغات العربية والالمانية والفرنسية والايطالية .

وكان في بغداد ساعاتي اسمه *Ludewig* ومشهور بقوته الهرقلية وقد اتفق في يوم ان غضب اثناء المحكمة فلوى حديد البندقية .

وفيما عدا ذلك كان هناك خياط اسمه *Kanthacke* وهو من قرية (قوبه نيك) في جوار برلين . ومن الغريب انه يوجد في كل مدينة تركية مهمة اصحاب حرف المان من مختلف الاجناس .

وفي طريقنا الى ايران رأى تلطفاً منه القائمقام (العقيد) مسعود الذي كان في خدمة الجيش التركي ان يحافظ المستر برول . وهو بلجيكي الأصل ينسب الى عائلة ثرية تدعى بـ (*Smith*) وقد درس في المانيا وانتسب الى البحرية حيث اصبح بحاراً مجرباً وقد أتاحت له مهنته كربان السفينة السفر الى امريكا وجنوب امريكا والى الهند واستراليا والصين في خدمة البواخر الانكليزية والهولندية وقد ذهب مؤخراً الى الاستانة حيث اسس معملا للطابوق . ولكن المعمل لم يكد يبدأ عمله حتى نشبت الحرب التركية ـ الروسية فتهدمت كل مشاريعه واضطر الى خدمة الاتراك فعين بمعية والي بغداد ، فذهب الى (طربزون) بالباخرة وفي طريقه اليها هجمت على باخرته (٦) بواخر روسية . فاعتبر ربان السفينة التركية سفينته هالكة لا محالة ولكن مسعود بك تسلم زمام القيادة وابلى بلاء حسناً فانقذ الباخرة من الخطر فحصل مقابل ذلك على وسام . ثم واصل سفره براً الى الموصل وهناك لقيته أول مرة فسهل أمر مجيء الى بغداد . وقد كان يحسن الالمانية والفرنسية والانكليزية كاحد ابنائها وبالاضافة الى ذلك كان يتقن غيرها من اللغات يتكلمها بسهولة وبطلاقة كبيرة وهو معاشر لطيف .

أما عن الهيئة الفرنسية التي ارسلت لغرض الحفريات والتحري عن الآثار

بجوار بابل فلابد من ذكر رئيسها المسيو (*Fresnel*) الذي بقي قنصلا في جدة (٢٠) سنة وكان يحسن الانكليزية والعربية بعناية بالغة وبشكل فصيح ومراراً عديدة صحح بعض الأغلاط لاشخاص من العرب وقد كان يطالع الالمانية ويفهمها غير انه لم يتكلم بها ويظهر انه كان قنوعاً بأنه لا يستطيع مجاراة الالمان في مجال لغتهم . ولكنه لم يبذل جهده في عمله الرسمي بل انسحب وانزوى في داره وعندما يزوره احد فيها كان لا بد من ربط كلبه العقور الذي اعتاد ان يسد الطريق ، ليفسح مجال الدخول ، وهو يستقبلنا بحفاوة الا انه لم يتعود رد تلك الزيارات ومع شديد الاسف كانت صحته سائرة الى الانحطاط بسبب تعاطيه الحشيش الذي يتناوله في كل صباح وقد توفى في بغداد قبل ان يسافر الى بلده . واما عن الدكتور (Oppert) الذي يعد بحق أقدر عضو في الهيئة فقد تعرفت اليه فى سفري الى الحلة وانا اشكره جزيل الشكر على ما قابلني به من حفاوة وما قدم الي من معلومات عن بابل المدينة القديمة .

والشخصية التي تستدعي الاهتمام هى شخصية الوالي (محمد رشيد باشا) ولست ادري سر الاهتمام الذي كان يبديه نحوي ، فقد اهداني كتباً مختلفة منها البوم فني ملون مرسوم قبل مأتي سنة وهو يرجع الى شاه الفرس المسمى (علي شاه) انتقل منه الى امراء الفرس الذين كانوا يعيشون فى بغداد تلك الايام . وقد بعثوا به الى الوالي لاجل ان يعرضه علي ولما شعر الوالي بأني استحسنت الالبوم اخبرهم ما اذا كانوا قد اهدوه اليه ام أرسلوه لمجرد الرؤية فقط . وطبعاً اجابوه بأن اهدائه كانت رغبتهم وعلى ذلك قدمه لي الوالي في آخر ليلة قبل مغادرتي بغداد كذكرى .

ان محمد رشيد باشا مولود في كرجستان ، وعندما بلغ التاسعة من عمره اسره الاتراك فاظهر مقدرة بارعة فارسلوه لاكمال تعليمه في فرنسا وبعد ان اجتاز الامتحانات بتفوق ظفر برتبة (يوزباشي) . فلما عاد الى الاستانة تدرج في رتب اعلى حتى عهدت اليه ولاية (خربوط) . فقاد قوة حربية ضد الاكراد وفق فيها حيث تمكن من اسر زعيمهم (بدرخان) وارضخ كل الثائرين . وفي مختلف المناسبات طلبوا اليه ان يتقلد مهام الوزارة، فرفض مراراً ورجح عليها ولاية بغداد لان راتبه الذي كان يتقاضاه عن ولاية بغداد يبلغ (١٢٠,٠٠٠) غرشاً شهرياً أي ما يعادل (٧٥٠٠) تالر عـــدا ما يتقاضاه من المخصصات الاضافية للتمثيل والمصروفات السرية فضلا عن انه كان يحكم كما لو كان حاكماً مطلقاً بعيداً عن دسائس رجال البلاط .

وقد كان نصرانياً في ولادته وتربى تربيـــة أولية كمسيحي ثم اكره على الاسلام الا انه في اثناء ولايته بغداد كان يطالع الكتاب المقدس وخصوصاً (العهد الجديد) . وبالنظر لبقائه زمنا طويلا في فرنسا فقد ارتاب البغداديون في اسلامه ولكي يبعد عن نفسه هذه الشكوك اخذ بعد مدة قليلة من مجيئه الى بغداد يقوم بتعمير جامع من ماله الخاص بشكل محتشم وقد حذا حذوه في الايام الاخيرة (عمر باشا) فابتاع المكتبة المهمة العائدة للمفتي المتوفى وجعلها وقفاً للجامع . ورشيد باشا الذي بلغ الخمسين من العمر والذي توفى قبل عامين بغتة كان شخصية تركية يحمل ثقافة عالية يستفيد المرء من حديثه كثيراً وكانت له معلومات عميقة في اللغة الفرنسية التي يتكلمها بطلاقة وقد وجدت عنده كتاباً نادراً فيه رسائل عربية متبادلة بين محمد (ﷺ) وابي بكر وعمر وعثمان وعلي والحسين وعائشة (رض) . وفيما عدا ذلك

يوجد في القسم التركي من الكتاب رسائل مع اجوبتها عائدة الى السلاطين الاتراك ابتداء من عثمان واورخان . وهذا الكتاب مطبوع في سنة (١٢٦٤) هجرية بالاستانة أو (١٨٤٧) ميلادية في اربعين نسخة قدمت نسخه منه الى الوزراء فقط وهو مؤلف من قسمين : الأول يمتد الى زمان سليمان الكبير أي ٩٣١ هجرية أو ١٥٢٤ ميـــلادية ولا ريب ان القسم الأول مشتبه في حقائقه الا ان الرسائل التركية كانت تضم وثائق مهمة من جهة اللغة والتاريخ.

ولما كان رشيد باشا والياً (لخربوط) أحصى نفوس الولاية فتبين أن المنطقة الممتدة من (صامسون) الى الموصل تحوي بين ٩٥٠ ـ ٩٥١ ألف مسلم وكانت اكبر الصعوبة هي في احصاء اكراد الحكاري بالنظر لأنهم اعرضوا عن كل ما من شأنه ان يسهل سبيل احصائهم فعلى ذلك استطاع اقناعهم بواسطة الحديث الشريف « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ولكن عندما سئل صبي كردي اباه عما اذا سيسجل ام لا ؟ واجاب ابوه بالايجاب سقط الصبي ميتاً

وفي نظر رشيد باشا توجد ثلاث قبائل كردية تختلف بعضها عن بعض : أولهم اكراد الساسه ويعتبرهم رشيد باشا احفـــاد الاباطرة القدماء وقد استوطنوا طوروس وهم يمتدون الى اواسط آسيا ، اما القسم الثاني فهم اكراد مقيمون على حدود ايران وقد تأثرت لغتهم بالفارسية تارة وبالعربية تارة اخرى . والقسم الثالث يتكون من قبائل القفقاس ويمتد محل اقامتهم من ارضروم الى خربوط وملامحهم تتشابه مع ملامح الكرج وهم يختلطون كثيراً بالأرمن . . . (١)

(١) المبشرون الاميركيون الذين يعيشون في الموصل يعتقدون ان للاكراد ثلاثة لهجات موزعة على ثلاثة مناطق : ١ـ لهجة السليمانية ، ٢ـ لهجة كردستان وتمتد الى وان ، ٣ـ لهجة العراق . وانفس اللهجات هي اللهجة التي يتكلم بها الشبك الاكراد وهؤلاء يسكنون في عقرة في كردستان متجهة الى الغرب . المؤلف

وقد اطلعنا الوالي رشيد باشا عن مشاهداته المهمة واذا صحت تلك المشاهدات والمعلومات فان نساء قبيلة عنزة يلدن توأمين .

وقد كان الوالي رشيد باشا في وضع غير مريح حيث يأمل أن يؤدب الاكراد المتمردين كما وفق الى ذلك من قبل وقد اعانه حظه في ذلك، الا انه عامل العرب بقسوة وانهال على بعضهم بشدة كبيرة . فارسل من جنده قوة قوامـــها ألفا جندي الى الهندية وقد كانت هناك قبيلة عربية في حالة اشبه بالتمرد ضد (وادي بك) الذي مر بنا ذكره سابقاً .

وشيخ المنتفك (منصور) الذي كان دائماً على ولاء مع الحكومة ، قدم بغداد مع اعوانه فقدم للوالي ٨٠ ألف شامية كجزية (أي تقابل ٤٠ ألف تالر) وقد جمعها بصعوبة كما قدم اليه جياداً اصيلة وجدد ولائه وطاعته للوالي . وبالرغم مما أبداه طلب اليه الوالي تسليم سوق الشيوخ كما سلم من قبل السماوة حيث اراد الوالي أن يشيد فيها حصناً يجعله مقراً للجنود العثمانيين وعلاوة على ذلك ضاعف الوالي مقدار الجزية وربما كانت أكبر صدمة تلقاها الشيخ اطلاق سراح ابن عمه ورقيبه فراس الذي ذهب حالا عند فرحان شيخ شيوخ شمر .

وفي خلال زياراتي المسائية لرشيد باشا كان يصحبني مسعود بك ورئيس صحة الولاية موسيو (دوتيهل) ، الذي كان الباشا يحبه ويقدره وقد كان هذا في حينه طبيباً في باريس وهو ابن احد اثريائها يزاول مهنته كهاو دون أن يحترفها وفي الوقت نفسه كان مولعاً باقتناء مجموعات الفراش واسس في باريس جمعية بأسم (جمية هواة علم الفراش) وبعـــد مدة وجيزة اصيب عصبية في والده اذ قد ضعف عقل ابيه فاستفاد المحيطون به من ذلك وقبل ان

يدركه الموت استغلوا هذا الوضع وحملوه على ان يوصي اليهم بامواله فحرم بسبب ذلك ابنه من الميراث وقد ترك ولده (موسيو دوتيه‌ل) لهم ذلك الميراث بسخاء وسافر الى الآستانة حيث اراد أن يحصل على لقمة عيشه عن طريق خدمة تركيا .

فكان عليه أن يؤدي امتحاناً مرة ثانية هناك في مدرسة الطب وبعد ان اجتاز الامتحان ارسل الى (كليبولي) حيث عاش فيها سنين طويلة طبيباً ومنها نقل الى بغداد وقد التقيت به في مدينة الموصل فحملني معه على كلكه الخاص وبلغنا بغداد بهذا الشكل وقد كان شخصية نبيلة مفكرة قنوعة لطيفة المعشر والظاهر انه كان طبيباً حاذقاً ولديه مجموعة من المسكوكات ومجموعة اخرى من الحشرات وقد اهدى الي قسماً كبيراً من مجموعة الحشرات على أن اهديها بدوري لحديقة الحيوانات في برلين .

وقد قدم في كانون الثاني السفير الانكليزي المستر (*Murray*) الذي عين حديثاً سفيراً لبلاده في طهران تصحبه حاشية كبيرة . وبعد أن لبث مدة ستة أو سبعة اسابيع اخذ يواصل سفره ببطء الى مقر وظيفته ويبدو انه كان يحرص على اظهار عدم اكتراثه بالفرس . ومن الجدير أن نذكر انه كان أخاً بالرضاع لكولونيل (*Rawlinson*) وقد كان معه في نفس العمر . وهو يتقن لغات متعددة منها الالمانية وقد سكن مصر في السنوات الاخيرة ثم تركها على ظهر باخرة قادها الكابتن (*Selvis*) وهي باخرة تعود الى شركة الهند الشرقية وقد ابحر عليها من مصر الى البصرة فبغداد . فلما بلغ السفير بغداد وصلها في الوقت نفسه المبشر الامريكي الذي كان في الموصل المدعو الدكتور (*Henry Lobdell*) يصحبه شماس كلداني الاصل

ثم تحول الى بروتستانتي وقد التمس هذا المبشر من السفيران يبسط حمايته على منطقة المبشرين في اورمية وفي ايران . وقد كان المبشر في الاصل طبيباً الا انه انصرف الى خدمة التبشير فأخذ يفتح المستشفى للمرضى دون تمييز بين اديانهم ودون ان يتقاضي على ذلك اجراً أو شروطاً ولكن يفرض عليهم بعض الاعمال مثل تأدية الصلاة في الصباح والمساء معهم وأن يستمعوا اليه وهو يفسر الكتاب المقدس ومع ان سنه لم تتجاوز الثلاثين الا انه كان مجداً يسعى الى توسيع معلوماته في كافة النواحي وولعه الشديد بالدراسة والعمل قصر من اجله وقد سكن مع المستر برول وأخذت منه طرفاً من المعلومات تتعلق باليزيدية والموصل وسوف أجتهد ان أنشر هذه المعلومات في المستقبل .

وارغب أن اضيف بعض المعلومات عن صديقي (المستر برول) لحرصي على تبديد شبهة امتداحه بدون حق اذ لو لم تكن لي به معرفة سابقة ما كنت احسب انني اتوسع في رحلتي الى بغداد ، فقد دعاني للاقامة عنده واضافني وعرفني بوجوه البلد وسهل لي امر سفري الى سوق الشيوخ حيث اعانني بالنقود لأنني لم اكن أملك اكثر من (ستة) تالرات ولما وصلت بغداد توقعت ان اتسلم حوالة ترسل لي من تاجر الماني كما اوصى لي القنصل الالماني في بيروت المستر (فيبر) ولكن ذلك الشخص لم يبعث الحوالة الا بعد ان تسلم الدراهم من برلين فوصلت بعد مرور ثلاثة اشهر من وصولي بغداد فتسلمتها بعد ان تكبدت خسائر فادحة . ولولا مساعدة المستر برول لما استطعت السفر الى ايران ولولا مساعدته لما استطعت ان اشتري هذه الأشياء النفيسة بثمن رخيص والتي بعثتها الى المكتبة والمتحف

الملكي بل لو لم يتكفلني لما استطعت أن أسافر خارج بغداد اذ أن آخر حوالة بعثتها الى المكتبة الملكية رجعت لعدم وجود اعتمادي وبعد سفري استعطفته فابتاع عدة مخطوطات المكتبة الملكية وكل هذه الايضاحات كافية لكي تكشف مبلغ ما أنا مدين له بالفضل فيجب علي ان أسجل هذا الفضل،

وقد عاشرته مدة سنة تقريباً فلمست اخلاصه للعمل ووجدته واقفاً على الكتاب المقدس والتلمود ولمست ان له حافظة قوية وبديهته سريعة وتبدو هذه المواهب بوضوح اثناء المناقشات التي كانت تدور احياناً بينه وبين علماء اليهود وبين انصاف العلماء منهم فكان يخرج في اكثر تلك المناقشات ظافراً والى جانب ذلك كان يحسن العبرانية وله استعداد كبير لتعلم اللغات الاجنبية وخلاصة القول انه قلما يوجد نظيره في الجرأة في وسط متعصب على نشر تعاليم المسيحية .

وحسبما ذكرت سابقاً ، ان مسلمي بغداد على مذاهب مختلفة . ويزور بغداد مراراً البدو المنتسبون الى قبائل متعددة ويوجد بينهم عرب يلفتون النظر واعني بهم عرب (الصليب) وهم بموجب التقاليد العربية غير معرضين للهجوم من قبل سائر القبائل العربية وهؤلاء منتشرون في اكثر البقاع العربية ويعرفون كل الطرق والمحلات التي يوجد فيها الماء ويعرفون بسرعة العدو ويستعملون السروج على ظهور الحمير ولا يملكون الخيل ويستطيع اي واحد معرفتهم لان ملامحهم معروفة بخطوط وجوههم طويلة ولونهم اقرب الى السمرة وبعضهم يمكن التعرف عليه من ملابسهم المؤلفة من جلود الغزال المخاطة بعضها ببعض وحسبما يقال : إنهم يركضون اربعة اربعة خلف الغزال ويصمونها ببنادقهم . وعلى

ما يذكر انهم من احفـاد (البابليين) القدماء ويتكلمون في الوقت نفسه بلهجة غريبة . وبين الاكراد في جوار خانقين وخسرو آباد توجد قبيلة رحالة تسمى (الكاوليه) ويحرص الاكراد على تجنبهم وعـدم الاصطدام بهم لأنهم قذرون . وعلى ما يروي انهم يبيحون زواج الآباء من بنـاتهم ويزيفون الدراهم ولهم معرفة بالطب ، وتغلب السحنة الهندية على وجوههم ويعرفون الى جانب الكردية العربية والفارسية ويظهر انهم من احفاد هنود (باريا) وهم القوم الذين يصطلح عليهم بالغجر .

ولست ادري على وجه التأكيد ما اذا يوجد في بغداد وهابيون أم لا وحتى اذا وجدوا فأغلب الظن انهم ينكرون وهابيتهم وهم يقطنون عمـان ويوجد هناك اكثر من مأتي ألف عائلة منهم .

ويعتقد المسلمون بوجود سبع سموات وسبعة عوالم ، وان ارضنا هي العالم الثاني وهي تقف على قرن الثور ويقف الثور على السمكة التي تسبح في الماء . وتبدأ رأس السنة (حسب مفهوم الأيرانيين فقط) في ٢٢ مارت (آذار) من كل عام حيث تتحول الارض من قرن الى آخر واطراف الارض محاطة بجبل (القاف) وهو من الزمرد ، وأصل لون السماء ابيض ولكن انعكاس لون الزمرد هذا يجعل لونها ازرق (يشابه هـذا الاعتقاد عقيدة الصابئة مما يدل على انه مشتق منهم) .

ويجب على المسلم ان يعطي شيئاً للفقراء في العيد الذي يعقب رمضان عن كل من يفطر في داره ، والا ذهب صومـه عبثاً وهي بموجب المذهب الحنفي تقدر بحقتين (ما يقارب الستة باونات) من الحنطة عن كل شخص أو ما يعادلها . وتختلف هذه الكمية في المذاهب الاخرى وتسمى (الفطرة) .

ويوقد البدو في الصحراء النار في الليل ليراها المسافرون فينزلون عندهم كضيوف ويلبثون ثلاثة ايام يأكلون ويشربون دون ان يسألهم احد شيئاً ومن عاداتهم انهم اذا دخل عندهم رجل أسير وأكل من نعمتهم فلا بد من اعتاقه وفك اساره . . .

وقد اتيحت لي فرص متعددة لبحث بعض معتقدات العرب الباطلة ويشارك عدد غير قليل من المسيحيين واليهود في هذه المعتقدات الباطلة وسأقدم لكم أمثلة على ذلك استقيتها من بغداد :

فحسب مايعتقدون انه اذا امعن شخص مصاب بنزيف النظر بدقة في حجر الدم او وضعه على جنبه توقف النزيف . وهذا الحجر يجلب من الكوفة وهو يمتاز بأنه لا يمكن برده بالمبرد .

وهناك نوع آخر من الحجر الاسود يسمى (حجر السلوى) ومن خصائص هذا الحجر انه عندما يوضع في الماء يتحول لونه الى الاحمر ويتحول معه لون الماء الى الاحمر ايضاً ، واذا شرب احـــد هذا الماء ينتابه الضعف تدريجياً ويدركه الموت ، ويميل الى هذا الحجر النساء عادة حيث يستعملنه للتخلص من خصومهن أو من ازواجهن .

اما الحجر الرصاصي المسمى (بالسلطاني) فتحمله النساء على صدورهن رغبة منهن في أثارة حب الرجال لهن لكي يسهل عليهن التحكم بهم .

وهناك عادة شائعة هي تقديم نوع من الحجر يسمى بـ (مخ الحمار) بعد ان يبرد ويخلط بالأكل والشرب الى الاعداء حيث يعتقد انه يسبب الجنة .

وهناك نوع آخر من الحجر القهوائي الذي يسمى بـ (السماي) ويعتقد الناس ان استعمال ثلاثة معاضد منه يكون طلسماً .

وإذا لدغت العقرب أو الحية مسلماً ، فالعادة الجارية ان يتلو الدعاء التالي: (بسم الله الرحمن الرحيم سلام على نوح الى الأبد !) ثم يبصق على الأرض ثلاث مرات . وتفسير هذا الأمر هو أن نوحاً عندما بنى فلكه جمع فيه كل انواع الحيوانات وقد طلبت اليه الحيـة والعقرب أن يقبلهما في فلكه فقبلهما نوح بعد ان أخذ منهما تعهداً وبموجب هذا التعهد عندما يذكر الناس بنوح يزول تأثير السموم والجروح التي يسببها الثعبان والعقرب (١) .

وعلى ما يدعي الشرقيون انهم يتمكنون من ابعاد الزوج الشاب عن الزواج ويربطونه . فاذا وضع أحدهم خاتماً في اصبعه وانزله على كلمات الملا ، يعتبر العريس الشاب مشدوداً طالما لا يخرج الخاتم من اصبعه ، ويزعم خادمي انه عمل ذلك مرة هازلا . ولكي ينقذ نفسه من تلك الرابطة اضطر الى اقامة وليمة كبيرة . واذا قام احدهم بسكب مسحوق الدقيق اثناء قيام المـــلا بتلاوة الدعاء أو عقد عقدة في قماش ثم حرقها فأن معنى ذلك انه لا سبيل الى فك هذه الشدة .

ويعتقد انه اذا قرأ أحدهم اثناء قراءة الملا الدعاء في الجنـــازة قراءة معكوسة فأنه أي الملا لا يستطع انجاز ذلك .

وهناك قواعد معينة يجب الأخذ والسير بموجبها في ايام الاسبوع : فيوم الجمعة خاص بالنساء ويوم السبت خاص للصيد ويوم الأحد خاص ببناء الدور ويوم الاثنين للسفر والثلاثاء للحجامة والأربعاء لتناول الأدوية ويوم الخميس للزيارة والشغل وحلق الشعر وتقليم الأظافر . ولتقليم الأظافر توجد

---

(١) ملا صالح الرجل الذي يعتمد عليه زعم انه رأى في حياته مرتين العقارب التي تستطيع الطيران وانه قد قتلها وعرضها للناس .

قواعد معينة وتسلسل خاص : فيبدأون باليد اليمنى من الاصبع الرابع وبعد ذلك ينتقلون الى الاصبع الاوسط فالابهـــام فالخنصر واخيراً اصبع الشهادة ويكون التسلسل عكسياً بالنسبة لليد اليسرى حيث يبدأون بالابهام فالأوسط فالاصبع الرابع فاصبع الشهادة وينتهون بالخنصر .

وللعرب ايضاً كما للغجر عادة قراءة الكف ، ويعرف هذا الأمر بالفراسة.

وفيما عدا العقاقير الطبية التي بحثتها اجتمعت عندي الوصفات التالية :

فقد اعطاني الملا صالح الشيخ وصفة كاملة ضد التهاب العيون التي تسبب ألماً شديداً والمنتشرة في ايران ايضاً وقد وصفه لي كدواء ناجع لهذا المرض وهو مركب من مثقال واحد (يساوي درهم ونصف) من الترياك او الحشيشة وثلاثة مثاقيل من حجر جهنم المحروق و ١٢ مثقال (أي ١٢ درهم) من تمر الهند . وهذا الاخير يشبه الكستناء قهوائي اللون مغلف بقشرة وهو ثمرة وأكبر قليلا من الكستناء ، دائري ومضغوط من الجانبين وعادة توضع هذه الثمرة ليلة واحدة في الماء البارد ثم يسحب ماؤها ويغلى ويضاف اليه الترياك وبعد مضي نصف ساعة يضيفون اليه مسحوق حجر جهنم المحروق ، ثم يوضع على النار حتى يتصلب المحلول وقلما يعجز مفعول هذا الدواء ازاء آلام العين إذ يقطعها حالا . وتؤخذ منه قطعة صغيرة بقدر حبة الحنطة وتبلل بالماء حتى تلين . ثم توضع على العين والاجفان من الخارج بقطنة فيشعر المريض لاول وهلة بأثر حرقة وسرعان ماتزول تلك الآلام فيشعر المريض بالراحة ويسمى هذا الدواء (شاف) أو (شياف) .

واما أحسن دواء ضد امراض المعدة وخصوصاً ضد البلغم هو (من السماء) وهو نوع من الندى الذي يتساقط على اوراق الاشجار ويجمع منها،

واكثر ما يوجد منه في ايران في قرية (خندسار) التي تبعد عن (كلباغون) مسافة ثلاثة ايام . وينفض الندى عن اوراق الاشجار أو تضغط الاوراق بما فيها من الندى ثم تجمع في كيس يضعونه في ماء بارد من الصباح الى المساء ثم يرشحون مائه خلال قماش من الصوف . حتى اذا تم ذلك يغلى بنار خفيفة حتى يترسب في القاع الجزء الكثيف الى قطع صغيرة توضع في صحون كبيرة مفروشة بطبقة من الدقيق يليها طبقة اخرى مماثله من هذه القطع الصغيرة ، ثم يليها الدقيق وهكذا دواليك . ويسمى هـــذا بالفارسية « كزنكبين » وبالعربية حلوى (من السماء) . وهناك دواء آخر يتلخص في تجفيف البنفسج وخلطه مع السكر ليشربه كالشاي وقد يخلط مع السكر ويغلى فتكون مادة اشبه شيء بشكر القند . ويؤكل بهذا الشكل أو يغلى مع الماء ويشرب كالشاي وميزته انه يعمل على تبريد الجسم حيث تلمس فوائده في الحمى . وتشتهر حلب بصنع هذا النوع من السكر .

ويستعمل في بيروت ابراز (ابو بريص) الكبير المسمى (خردون) كدواء . وفي بغداد ايضاً يستعملون ابراز الفارة المسمات بـ (الجربوع) كدواء . وتستعمل الحجامة كدواء خارجي . ويقوم بذلك عادة الحلاقون ولهذا يطلق عليهم اسم الحجامين . وهم (أي العرب) في الوقت نفسه يستعملون (الكي) . وعلى ما يزعم العرب ان لديهم كتاباً نفيساً لافلاطون يضم حوالي ثلاثين طريقة من الكي ، تستعمل لمختلف الاعضاء من البدن . وتتم هذه العملية (أي عملية الكي) بواسطة حديد محمي ويكون محل الكي عادة اما موضع في الذراع أو في الصدغين ويضعون على مكان الحرق قطعة بزلية ثم يسحبون الصديد منها كل يوم .

يستعمل النساء لقتل الحشرات الزرنيخ المخلوط مع الحناء كما انهن يصبغن بها شعرهن . والمعلوم أن الزوار الى مكة لا يتعرضون لأي حيوان بالقتل لذلك يحملون هذه المادة في كيس في القسم الاعلى من ملابسهم ويربطونه الى اكتافهم وهم عادة لا يحكون جلودهم باظافرهم خشية ان يقتلوا الحشرات . لذلك يستعملون عصى صغيرة معدة لذلك وبعد انتهائهم من الحج يباح لهم ما حرم عليهم من قتل الحشرات .

وبالنظر لكون الخنزير محرماً لدى المسلمين كما هو عند اليهود لذلك لا يستعملون الفرشاة المصنوعة من شعره ويستعمل نساء العرب اخشاباً صغيرة لتنظيف اسنانهن تدعى بالمسواك ولكي تلين هذه الاخشاب تكسر وتبلل بالماء.

ويوجد في بغداد في خان الدراويش القادمين من ايران معمل كامل يصنع مادة مخدرة تسمى الحشيش وهو يتلف الجسم والروح . وقد حل الحشيش محل الآفيون في بعض المناطق في تركية الآسيوية على الاقل . وعندما طرق سمعي هذا الأمر ، ارسلت خادمي الى ذلك المعمل . وطلبت اليه أن يبتاع قليلا منه ويتعلم طريقة صنعه وقد صنعوا هذه المادة أمام عينه ، فسحقوا بذور الحشيش بالهاون حتى اصبح مسحوقاً عجنوه وخلطوه مع قليل من الماء ثم وضعوه على النار سبع مرات وفي هذه الأثناء كانوا يخلطونه حتى اصبح مادة صلبة . وبعد ذلك لم يضيفوا اليه شيئاً آخراً . ويستعمل بعضه مع الأكل والشرب وبعضه للتدخين . ومن هنا يفهم انه اما ان يستعمل للاكل أو للشرب أو للتدخين .

وعلى العموم مناخ بغداد صحي بينما يتعرض المرء في الموصل خلال ايلول وكانون الأول الى الحمى بسبب مناخها وهذه الحمى غير موجودة في

بغداد والامراض المائية والحجرية المسببة من المياه الكلسية والاراضي الكلسية ، منتشرة في الموصل بكثرة بينما تكون من النوادر في بغداد .

ويجتهد الرجال والفتيان في تقوية أجسامهم بحمل الاثقال الخشبية الكروية الشكل بايديهم وبعضهم بالمصارعة ويرتدون في هذه الاثناء سراويل عتد الى ابعد من ركبهم وهى مصنوعة من الجلد ويسمى الاستاذ في هذه الالعاب بـ (البهلوان) . . .

كانت الاوزان والمقاييس ، كما هى عندنا تقريباً ، تختلف في مختلف الاماكن . وأكبر الاوزان الشائعة في بغداد هو (الطغار) ويقابل عشرين وزنة أو ثمانين مناً ويستعمل عادة للحنطة والشعير . وفيما عدا ذلك يعتبر (القنطار) أكبر وزن ويساوي حسب ميزان الصيدلي ثلاثين (من) وحسب ميزان البقال ٢٢ مناً ونصف من

وتوجد في (الوزنة) الواحدة اربعة امنان وفي (المن) ستة حقق وفي (الربع) (الجهاريك) حقة ونصف . و (الحقة) الواحدة تقابل اربعة اوقيات (والوقية) الواحدة اربعة ارباع و (الربع) الواحد (١٦) ونصف مثقال أو (٢٥) درهم أما (المثقال) فيساوي درهما ونصف درهم أو (٢٤) حبة و (الحبة) تساوي اربعة قمحات . والحبة الواحدة في ايران تكون عادة اصغر قليلا من حبة بغداد . وبناء على ذلك يكون مثقال بغداد اكثر من مثقال ايران بحبتين . ويقسم الايرانيون هذا الى (٢٤) حبة ويساوي الدرهم ثلثي المثقال وخمسة وقيات وحسب وزن الصيدلي تعادل حقة واحدة من حقق البقال . ويساوي من العلوة ثمانية ونصف من حقق البقال و (الرطل) الواحد يساوي نصف من وفي الموصل يقابل الرطل الحقة . اما في مكة فيساوي الرطل

وقية ونصف وفي الحلة تقابل حقة البقال حقتين من حقق البقال وتساوي وقية الحلة وقيتين من بغداد . ويعادل من البصرة خمسة امنان في بغداد . بينما في سوق الشيوخ الوقية الواحدة تقابل (٧) وقيات في بغداد . والمن الواحد الشاهي في تبريز يقابل حقتين من وزن البقال . وميازين الذهب في الاستانة تساوي ميازين الصيدلي .

واذا اخذنا بمقياس الذراع ، فذراع حلب هو اصغرها اذ تساوي خمس اذرعة حلبية اربع اذرعة بغدادية وخمسة اذرع بغدادية تقابل اربع اذرعة فارسية ويوجد في كل ذراع ستة عشر شبراً .

اما المسكوكات النقدية ففي بغداد يوجد (القران) وهو على نوعين رديء وجيد . والقسم الرديء يقل بقرش عن الجيد ويتعامل البعض (بالشاهي) وبالقرش . وكانوا قبلا يتعاملون بفئة المئة (يوزلك) ويسمون ذلك في مصر والشام (شوشي) أما في بغداد فبـ (أبي تاكه) وكان ثمنه يساوى اثنين ونصف شامي أو قرش .

وقد استعملت هذه السكة في بغداد الى سنة ١٢٣١ هـ . أو ١٨١٦ ميلادية ، حتى وصول داود باشا بغداد . كان داود باشا عبداً من عبيد سعيد باشا فاراً منه يملك اموالا طائلة فجمع حوله مئات من الاشخاص ودخل رجاله بغداد بعضهم بالرشوة وبعضهم بالقوة . وبعد مضي ثلاثة ايام قطع رأس الوالي ، ومع ذلك عين بعد مدة والياً لبغداد . وفي تلك الايام كان الشامي الواحد يقابل قرشاً . فاصبح بعد مدة مساوياً ثلاثة قروش . ثم ارتفع الى سبعة ونصف قروش . وبعد ذهاب داود باشا كان ثمن الشامي في سنة ١٨٥٥ يساوي ثمانية قروش استنبولية أو على الاصح ثمانية وربع قرشا استنبولياً وهذا

يعادل (٣٣) قرش بغدادي لأن القرش التركي الاستنبولي كان يعادل اربعة قروش بغدادية .

وفيما عدا ذلك كان في بغداد كثير من المسكوكات النمساوية لا سيما من فئات العشرة والعشرين (كرويسات) وبقدر ما كانت هذه المسكوكات نادرة في النمسة كانت مبذولة في بغداد .

وفجأة غمرت النقود الروسية اسواق بغداد ، حيث كان يقدم من الحدود الروسية الجنود الاتراك الهاربون الى بغداد وحسب دعواهم ان الروس كانوا ينفحونهم بالمبالغ الكبيرة بمختلف الطرق حتى انهم كانوا يقدمونها اليهم داخل البطيخ . ويشوقونهم بذلك على الفرار وبعد ذلك هاجموا الجيش التركي وفرقوه بسهولة .

وبعد أن لبثت في بغداد خمسة اشهر تهيأت للرجوع الى وطني في ١٥ مارت المصادف يوم الخميس .

الفهرست

تصويب

	الغلط	الصواب
صفحة ١١ هامش (١)	*grundritz der stadt*	*Grundriss der Stadt*
صفحة ١٦ هامش (١)	*merchand of venice ets ...*	*Merchant of Venice etc ...*
صفحة ٢٤ هامش (١)	*der erd .*	*der Erd*
صفحة ٥٤ هامش (٣)	*in mesopotamia*	*in Mesopotamia*
صفحة ٧٣ سطر ١٢	باشا موصل	باشا الموصل
صفحة ٨٥ سطر ١٦	(٩٠٠٠٠) دار	(٩٠٠٠) دار
صفحة ٨٦ هامش(٢)	في سنة ١٨٥٠	في سنة ١٨٥٥
صفحة ٩١ سطر ٤	قيم	قيماً
صفحة ١٠٦ هامش(١)	انفس	اتمس



ساحة الميدان قبل ١٠٠ عام